من روائع القصص العالمي
(١)



القربان وقصص أخرى

ترجمة
الدكتور حمادة إبراهيم

دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام
DAR AL ASALA FOR CULTURE PUBLISHING AND INFORMATION



القربان

وقصص أخرى

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

ص ب: ٤٢٢٤٨ الرياض ١١٥٤١

الفهرس



المقدمة

تحوي المجموعة التي بين أيدينا خمس قصص مترجمة .

بين يدي المتلقي قصتان، بطل كل منهما الحرب، يبدو في إحداهما متخفياً يقوم بدوره من وراء ستار ولكنه يحرك الأحداث، ويحرك الشخوص والخطَّ الفني في القصة. نرى هذا في قصة من اليابان للكاتب «جوازان هيزاءو». في القصة تصوير لوقع الأحداث على الابن «تارو». وقد اختار الكاتب الزمن النفسي أداة فنيَّة لتتابع الأحداث ـ «فتارو» يعيش محنة نفسية نتيجة الضغوط التي تعرّض لها، إذ مات أبوه، وهزمت بلاده في الحرب العالمية الثانية، فاختبأ هو وأمه في مغارة، وكان يرى بعينيه كيف يقدم اليابانيون على الانتحار جماعات، كي لا يسقطوا في أيدي الأمريكيين. وحاولت أمه التخلص منه، لتفتح حانة تقدم فيها المتعة للجنود الأمريكيين.

بين الوهم والواقع بدت تصرفات «تارو» (شاذة في نظر الآخرين) في حين أنه يقوم بهذه الأعمال ليشبع في نفسه الحاجة إلى تقديم المساعدة لأمه التي يتوهم الآخرون أنها

لقيت مصرعها. حاول الفتى الانتحار بيد أنه فشل مرة، ثم نجح بعدها في أن يطلق على نفسه الرصاص، لذلك ليس غريباً أن يأتي اسم القصة مباشراً «الابن والأم».

وفي قصة أخرى من فيتنام «الجسر المعلق» للكاتب «توي آن هوانج دان» نرى الحرب تقوم بدور البطولة، وتحريك الأحداث والشخوص بشكل ظاهر واضح. تصور القصة تصويراً دقيقاً هجرة قرية فيتنامية فراراً من رصاص الأمريكيين وتدميرهم. تأخذ القصة من جانب الهجرة ذلك البعد الإنساني للفرار المليء بالخوف، والموت المطارد في إلحاح، والترقب واللهفة على النجاة بالنفس. النسوة يصرخن، والأطفال يبكون ويصرخون هلعاً من الموت، وتختلط أصوات الانفجارات بأصوات الخائفين والباكيات المذعورات، هذا البعد الإنساني أعطى القصة مذاقاً خاصاً، واستدعى من وعي الإنسان العربي هجرة أهل القرى الفلسطينيين فراراً من الدمار والقتل على أيْدي القتلة الصهاينة. تنتهي القصة نهاية مأساوية لتفجر في نفس المتلقي طاقات إنسانية لمواجهة الغزو والدمار وكل ما فيه من ظلم واعتداء على سلام الإنسان وأمته.

في المجموعة قصتان بطل كل منهما الاستعمار ـ تفجر القصة الأولى «القَرْبان» للكاتبة الهندية «نرجس دلال» المكبوت في الضمير الجمعي من تفكير ميتافيزيقي ومن كراهية

للمستعمر، فتجمع شخصية المستعمر المتعجرف بين هذين البعدين؛ فهو قربان ـ الجانب الميتافيزيقي ـ وهو عدوّ ـ مستعمر ـ تصور القصة شعيرة دينية لقبيلة بدائية، لم تزل بعد تفسّر الأحداث ميتافيزيقياً؛ فالمطر لا ينزل إلاّ إذا قدم قربان بشرى لإلّه المطر. والقربان البشرى شعيرة دينية قديمة قبل أن يعرف الإنسان النار، منذ مرحلة جمع القوت مروراً بمرحلة الصيد ثم مرحلة معرفة النار واستخدامها، ثم مرحلة الزراعة، وهي آخر مرحلة من المراحل الحضارية قبل ظهور الأديان. وقد عرفت الحضارات القديمة جميعاً القربان البشرى، وشاء الله سبحانه أن يتعلم الإنسان تغيير القربان من قربان بشرى إلى قربان من الحيوان احتفاظاً بإراقة الدّم تقرباً إلى الله، حيث أنزل الفداء الحيواني لإسماعيل إذ همّ إبراهيم ـ عليهما السلام ـ بذبحه تنفيذاً لأمر ربه.

شخوص القصة الهندية تصوّر بعدين متناقضين؛ السيد الإنجليزي المستعمر بعجرفته، والسائق الهندي البسيط بفهمه وإيمانه بالشعيرة الدينية. ولقد تذهب بعض القبائل البدائية إلى أن يكون القربان بين الأعداء، وهذا هو ما حدث في القصة، إذا كان القربان من الإنجليز المستعمرين، تربط القصة إذن بين الحس الديني والحس القومي.

أما القصة الثانية والتي يقوم الاستعمار بدور البطولة فيها فهي قصة «خطة محكمة ولكن» للكاتب البلجيكي «فيردان». عن المستعمر في الكونغو الذي تمزقه حياته بين الوهم الذي يعيشه وبين الواقع الذي لا يعرفه. في القصة صراع خفي بين رجلين من أجل امرأة، إذ يدبِّر كل منهما حيلة للتخلص من الآخر لينفرد بالمرأة. والكاتب يسير بالمتلقّى مع إحدى الشخصيتين دون الأخرى، ويظل يتابع مشاعره وحيله وأفكاره، ويفاجئنا قبل نهاية القصة بقليل بأن الشخصية الأخرى تنطلق من نفس المنظور وهو التخلص من الرجل الآخر. لذلك تأتي نهاية القصة محققة لتدبير الرجل الآخر لينفرد بالمرأة.

تبقى القصة الخامسة في المجموعة وهي قصة فرنسية تتناول جانباً من جوانب النفس البشرية واختلاجاتها. «الحسد» للكاتب الفرنسي «دانيل بولانجيه». يدخل الكاتب فيها إلى لاوعي «غريسار» وقد امتلأ قلبه حقداً وحسداً «لاسكندر فانتون». حقد «غريسار» هو البديل النفسي لشهرة «اسكندر» التي لم يحقق هو منها شيئاً ـ القيمة الفنيّة هنا في حقد الإنسان الفاشل للإنسان الناجح، وهذا منحى من مناحي النفس البشريّة، لذلك ترينا القصة كيف يصبّ حقده على الأشياء، وخاصة المقعد الذي مات فوقه الآخر. والمفارقة أن يضطرّ

الحاقد إلى كتابة كلمة ليلقيها في حفلٍ عرفاناً وتقديراً لمن يحقد عليه.

وبعد، فإن الترجمة التي بين أيدينا للقصص الخمس ترجمة جيدة، لأن الترجمة الجيدة هي التي تجعل من القصة المترجمة قصة في نسيج الأدب واللّغة التي ترجم إليها، ولا يتأتّى هذا إلاّ إذا كان المترجم أميناً مع النص في بعديّه الفنيّ واللغوي. والدكتور حمادة إبراهيم في القصص المترجمة التي يدخل بالمتلقى إلى عالمها لم يأت بالترجمة من باب الصّنعة، ولكنه جاء بها من باب الفن، ولذلك حقق الجانب الفني المطلوب في القصة، وجاءت ترجمته محكمة البناء، لا تترك فرصة واحدة للظن بأنه يقرأ قصة مترجمة اللهم إلاّ الأسماء، وإنما يخيّل إليه أنه يقرأ قصة في الأدب العربي.

وهذا جهد يُحمد للدكتور حمادة إبراهيم.

د. أحمد السعدني



قصة من الهنـــد :

القــربـــان!

للكاتبة الهندية : نرجس دلال

انطلقت السيارة ناشرة ضـوضاءهـا فوق طـريق وعر يغـطيه الحصى، وقد علت طبقة من التراب الأسمر أجنحتها وغطاءها وسائر أجزائهـا التي كانت تتلألأ قبل قليل. . وامتدت الحقول القاحلة الجرداء في كل الجهات، في أخاديد متكلسـة، حتى سفوح الجبال التي لفتها غلالة من وهج الحر. . غلالة خفيفة كالدخان، مائلة إلى الزرقة.

ولم يكن السيد «تريانا» يكف عن التطلع ـ وهو في جلسته المريحة ـ إلى ما حوله من مناظر تلك المنطقة. لقد قام برحلته هذه كي يرى بلاد الهند، وقد عقد العزم على أن يشاهـد منها بقدر ما أنفق على الـرحلة. . فرأى المـراعي الغنية والـروابي الخضراء في الشمال، وشاهد مزارع الشاي فوق المنحدرات، وزار بعض المعـابـد والأطـلال، ورأى السـدود التي أقيمت

حديثاً. وها هو ذا يرغب في زيارة المنطقة التي تجتاحها المجاعة. . وكان حريصاً على التقاط بعض الصور لبعض النسوة الهزيلات، بأثدائهن المدلاة كالقرب، ولبعض الأطفال الذين ضمرت أعضاؤهم هزالًا، وانتفخت بطونهم في بشاعة تستحق التسجيل. فسوف ينشر هذه الصور في صحيفته لدى عودته مباشرة. . ولسوف يكون لهذا دوي صحفي مثير، ومن ثم فقد حرص أن تكون الصور بالغة الدقة والوضوح.

أما ركاب السيارة الآخرين، فلم يبد عليهم أنهم يشاركونه قدراً يذكر من حماسته. . على أن هذا لم يكن ليعكر مزاج السيد «تريانا» على الإطلاق، فما من شيء يستطيع أن يصرفه عن غرضه، وكانت الحرارة تنقض عليهم - بلا هوادة - من خلال النوافذ الزجاجية المغلقة. . حرارة لا تكاد تطاق! . . وكانت الاتربة تنفذ من بعض الشقوق الخفية في السيارة فتنتشر على جلد المقاعد الفاخرة!

وراحت صغرى السيدتين تجفف العرق فوق جبينها، وهي مستلقية في استرخاء على مقعدها الوثير. كانت ذات وجه نضير أملس، على الرغم مما تركه الإرهاق على ملامحها من علامات. . سوداء الشعر، يتراقص في عينيها فيض من الأشعة الذهبية. . ولعلها كانت في الثلاثين من عمرها. .

أما السيدة الأخرى ـ وهي شقيقة السيد «تريانا» فكانت أكبر سنـاً، وقد تهـالكت في أحـد أركـان العـربـة، فـاغـرة الفم، متجهمة، تغفو في نعاس مضطرب، وقد علتها طبقة رقيقة من الأتربة غطت شعرها ووجهها، وعينيها، وتراكمت فوق حاجبيها وأهدابها. . وكأنها أحد مقاعد العربة! . . ولم يكن يلوح عليها أنها تدرك شيئاً مما حولها!

وأما السائق فكان شاباً هندوكياً، ذا رسغين نحيلين مرنين، وقد أمسكت يداه الرقيقتان بعجلة قيادة السيارة الضخمة بيسر، وأخذتا توجهانها دون جهد واضح، وكان هو الشخص الوحيد الذي لم يعان وطأة حرارة الجو. ولقد كـان يعمل ضـابطاً من قبـل، وقد أعيـر للسيد «تـريانـا» طـوال فتـرة الـرحلة على أن يقوم ـ في نفس الوقت ـ بـدور المرشـد والمساعـد، ولم يكن يفتح فمه على الإطلاق، اللهم إلا ليشير في عبـارات موجـزة إلى ما هو مثير في تلك المنطقة، من مواقع!!

ومال نحوه السيد «تريانا» قائلاً:

ـ اسمع يا «بريتام»! ابحث لنا عن ركن نستطيـع أن نتوقف فيه لتناول الغداء. أحبّ أن أصيب شيئاً من الطعام.

وأومأ « بريتام » بحركة من رأسه توحي بأنه قد سمع ، وإن لم يحول عينيه عن الطريق . .

وأحنق ذلك السيد «تريانا» الذي لم يكن يحب الهندوكيين، لا سيما الصموتين منهم.. كان ميالاً إلى الثرثرة، وكان قصير القامة، ضخم الجسم ذا عضلات قوية ثقيلة، نحاسي البشرة، وكان شديد الزهو بإعلان جنسيته الإنجليزية، لا يكف عن التلويح بجواز سفر بريطاني ليؤيد دعواه.. وربما كان هناك خطأ ما فإن جواز السفر البريطاني ـ الذي كان السيد «تريانا» يحمله ـ لم يحل دون أن تكون بشرة الرجل داكنة كبشرة «بريتام» أو أن تكون عيناه صغيرتين سوداوين براقتين، أو أن يكون ذا شعر طويل أسود، يلمع بفضل ما كان يعلوه من «بريانتين»... كان حريصاً دائماً على العودة إلى طرق هذا الموضوع ما أمكنه ذلك، شأن من يريدون أن يؤكدوا انتماءهم إلى أصل مشكوك فيه!! وما أشد ما كان ينتابه من حنين حين يتحدث عن «وطنه» ـ بريطانيا ـ!! وتفوق هذا الوطن على غيره من الأوطان ـ كانت الشعوب الملونة جميعاً ـ شعوب ذوي البشرة الصفراء والنحاسية والأبنوسية ـ لا تعدو في رأيه أن تكون سلالات زنجية اعتاد أن يختصها بعناصر الازدراء، وكان دائم السخرية بكل ما يراه، ينتقده بلسان حاد.. وكم امتلأت بالغبطة الخبيثة نفسه لكل ما كان يمر به من قرى يسودها الخراب والجدب، حتى إنه كان يفرك يديه إعلاناً عن سعادته.. ولعله كان يتصور، وهو يحشر نفسه في زمرة

الأوربيين، أن باستطاعته أن يغير من لون بشرته وشكل عينيه!!

كان السيد «بريتام» ـ الضابط السابق بسلاح المدفعية يتساءل ساخراً عما عسى أن يكون مسقط رأس هذا السيد «تريانا». لعله ولد تحت سماء في مثل زرقة هذه السماء، وفي مناخ أشد حرارة من هذا المناخ. . بيد أن «بريتام» كان حريصاً على أن يقف موقفاً سليماً، وكان ما يتمتع به من دماثة خلق يحمله على ألا يدع أية فرصة لإظهار ما كان يجد من تسلية وفكاهة من مظاهر تعاظم السيد « تريانا » وادعائه ! .

وانحرفت السيارة الضخمة عن الطريق لتصل إلى تل كان يبدو ـ من بعيد ـ كأنه كومة قبيحة من الأحجار. وهنالك، اكتشفوا حصناً مهجوراً، يستطيع المرء أن يجد بداخله ملاذاً من وطأة الشمس، وأن يعثر فيه على مكان رطب تستريح فيه النفس من شر هذا الهجير!

وخرج الجميع من السيارة يتمطون في اغتباط لأول مناسبة سنحت لهم للحركة. . وتثاءبت الفتاة، ورفعت ذراعيها فوق رأسها، كقطة صغيرة كسول، وأخذ السيد «تريانا» ـ الذي لم يكن يحول عنها عينيه ـ يمرّر طرف لسانه فوق شفتيه الغليظتين ، ويدنو منها ليمسك بذراعها بين أصابعه الضخمة. ثم قال لها في تلطف: «أسرعي إلى الظل يا هيلين!».

وقرص ذراعها، وهو مستمر في مزاجه: «كيف نصبح، إذا أصبت بضربة شمس. . هه؟

وابتعـدت عنه الفتـاة في فتـور، ودخلت إلى الحصن وراء السيدة الأخرى. الواضح أنهـا لم تكن تحب السيد «تـريانـا» ولكن وضعها كمرافقة للسيدة «جـوردان» شقيقته ـ كـان يحتم عليها أن تحتمل الكثير مما لا يروقها منه. . ولكن الوقت كان قد فات للندم على ذلك!

وتوقفت خلفهم عربة نقل صغيرة، كانت تتبعهم على مسافة كافية، ونزل منها خادمان وأخرجا منهـا سلالاً، وبسـطا بعض المفارش، وأعدا المـائدة في حـرص ومهارة ينمـان عن خدم مهذبين مدربين.

* * *

ومـا لبثت السيـدة «جـوردان» ـ التي ظلت أثنـاء هــذه الاستعدادات صامتة، أن راحـت تتأمل الغداء بعين نهمة ـ فقد انقضت على كومة الشـطائر بيـد متلهفة، وراحت تلتهم منهـا بنشوة وشره. . بينما كانت «هيلين» تـرقبها بشعـور من الشفقة والاشمئزاز، وانتحى «بريتام» جانباً، وقد بدا على سجيته، في قميصه الأزرق ذي الياقة المفتوحة. . وتجلى على وجهه ذلك التعبير الذي ظل يلازمه، والذي كان ينم عن البرود واللامبالاة

وكـأنه كـان يرجـو بذلـك أن يقيم حاجـزاً بينه وبين البـاقين.

لم يكن السيد «تريانا» يكف عن إثارته طوال فترة الـرحلة، وقد ظل يضايقه بـالملاحـظات المحرجـة عن عادات الشعب الهندوكي ومعتقداته. ولكن «بريتام» ظل ـ من نـاحيته ـ ثـابت الجنان لا يتأثر. وكان موقفه هذا مما أثار حيرة «هيلين» فقد كان عدم اكتراثه يحنقها تـارة، ويحملها على الإعجـاب به ـ تـارة أخرى ـ لما كان ينم عنه من سيطرة على النفس.. سيطرة تفوق كل تصور! وقد دفع هدوء «بريتـام» السيد «تـريانـا» إلى ذروة السخط، فصاح في النهاية يعلن بازدراء:

ـ بلد رائـع!.. يمكن أن يقـال إنكم قـد بلغتم درجـة من النضج تؤهلكم للتمتع بالاستقلال... أو بتعبيـر آخر، يمكن أن يقال إنها تبيح لكم الحق في أن تموتوا جوعاً في سلام.. دون أن يؤذن لأحد بالتدخل في شئونكم!

ولكن «بـريتام» ظـل على صمته... وهنـا انتـابت السيـد «تريانا» نوبة حنق بارد، وكأنما عقـد العزم على أن يفعـل أي شيء من شأنه أن يحدث استجابة لإثاراته.. كان يريد أن يرى الغضب يزيح ذلك القناع ـ الذي لم يكن يملك أن ينفذ خلاله إلى ما في نفس الرجل ـ ويصبغ هذه البشرة السمراء بحمرته، ويشعل الشرر في هاتين العينين اللتين كان هدوء نظراتهما أسوأ

أثراً من الإهانة. لذلك طوح بذراعه في أنحاء القرية القاحلة، وفي اتجاه الأرض التي كانت تتشقق جدباً تحت الشمس قائلاً:

ـ فيضانات، مجاعات، فساد، رشوة، زيادة في السكان، نتيجة رائعة!.. هه؟ إن أحداً لم يستطع ـ منذ غادرنا هذه البلاد ـ أن يفرض أي قدر من النظام.. ليس لديكم من معنى كلمة الحكومة سوى الثرثرة الفارغة ينساق إليها بعض الساسة الذين أسكرتهم نشوة السلطان!.. كيف تجرؤون على الاشتراك في جلسات مجلس الأمن؟.. كيف تتأتى لكم القحة لتقدموا للعالم النصائح والتوجيهات.. أنتم يا من تتخبطون في أبشع ألوان الفوضى؟.. يا لها من وقاحة لا تطاق، أن يندفع أناس في إبداء النصح والدعوة للنظام، وهم لا يعرفون كيف يوجهون دفة أمورهم!.

وفي لمحة خاطفة كأنها وميض البرق، لاح أن «بريتام» يوشك أن يهم بالانقضاض على السيد «تريانا» فيقبض بأصابعه الطويلة على عنقه، ويضغط بكل قواه.. ولكن يديه المتوترتين ارتدتا بسرعة، وقال بلهجته الانجليزية التي لا تشوبها شائبة:

ـ أظن أن وقت الرحيل قد حان، إذا أردنا أن نصل إلى «الشاليه» قبل حلول الليل!

* * *

وكانت السيدة «جوردان» تنقل بصرها بين الرجلين، والقلق يرسم على وجهها تعبيراً يزيد من معالم البلاهة التي تعلو أساريرها. . وما لبثت أن قالت بلهجة تنم عن التوفيق والمصالحة:

- سيد «بريتام» أليس عندك من معلومات مثيرة تود اطلاعنا عليها، بشأن هذا الحصن؟

وتطلع إليها «بريتام» ثم ابتسم قائلاً:

- إنه ليس سوى حصن قديم بلا تاريخ. . على أنه من المعلومات الطريفة أن لدى القرى المجاورة عادة جديرة بالذكر، تتمثل في أن يقدم السكان إلى إله المطر قرابين بشرية. . وبما أن القانون - في أيامنا هذه - يحرم بالطبع مثل هذه العادات، فإن كثيراً من الفلاحين - من سكان المنطقة - يعتقدون اعتقاداً راسخاً، أنهم ما كانوا ليواجهون هذه المجاعة لو أنهم قدموا إلى إله المطر قرباناً!

فأطلقت السيدة « جوردان » صيحة خفيفة ، تنم عن الانفعال والرعب ، وهتفت :

- أتعني أنهم كانوا يتقربون إلى آلهتهم بمخلوقات بشرية حقاً؟

وأردفت هيلين: «يا إلٰهي!.. هذا غير معقول!

فهز «بريتام» كتفيه، وهو يجلس إلى عجلة القيادة، وقال:
- عجباً!.. هذه ليست سوى وسيلة من الوسائل لمواجهة الأمور. إنهم يضحون بكائن بشري في سبيل إنقاذ حياة المئات من الآدميين.. وفي الوقت ذاته، نحن هنا نرى أن من البشاعة إرسال الناس إلى بلد أجنبي بهدف قتل أناس آخرين لا يكنون لهم شيئاً من العداء!.. وعلى أية حال، فإن هذه العادة قد انقرضت منذ عهد بعيد.

وصرخ السيد «تريانا» بلهجة غاضبة:

- هل تتطاول فتقارن تلك الشعائر الوحشية، التي تؤديها قبيلة بدائية جاهلة، بالحملات التي تنظم تنظيماً دقيقاً في الحروب الحديثة؟

وقال «بريتام» في نفسه، وقد بلغ به الضيق مبلغه:

«ها هو ذا يعيد الكرة!» ثم بذل جهداً جباراً للسيطرة على نفسه.

* * * * * *

كانت السيارة تسير ببطء في طريقها المرسوم، فصرف ذهنه إلى تأمل روعة الآلات الحديثة. فقد لا تواتيه

الفرصة ـ بعد اليوم ـ ليقود سيارة لها مثل هذه الروعة والمرونة. وراح ـ وهو مقطب الجبين ـ يركز كل اهتمامه على الطريق.. ترى بالله، ماذا سيتاح لهذا الكائن المترهل أن ينشر في صحيفته؟

كانت الحقول العارية ـ التي ألهبتها الشمس وأجدبتها ـ تتتابع في خط واحد، على مدى البصر.. وعلى مسافات متباعدة، كانت الأبصار تلتقي بهيكل شجرة وحيدة، تمتد أغصانها إلى السماء، أو بمجموعات صغيرة من الأكواخ المتناثرة، عبر تلك المساحات المترامية الموحشة.. ولكنها لم تكن تقع على كائن بشري، وكأنما لم يقدر لمخلوق من الأحياء أن يخاطر ويتوغل في هذه الصحراء.

* * * * * *

وأخيراً بلغوا «الشاليه»، وعند عتبة الشرفة ظهر كهل بادي النعاس، وراح يتأمل السيارة الفارهة وركابها في بلاهة.. كان المسكن نموذجاً لمأوى كلاسيكي: أثاث عتيق تغطيه الأتربة ويخيم عليه نسيج العنكبوت، وحشيات يسمع صرير زُنْبُركاتها المحطَّمة، وأسرع القوم ينشرون الملاءات النظيفة قبل الشروع في اتخاذ الترتيبات الخاصة بوجبة المساء.

وأقبل على المكان بعض الأهالي الشاحبين، النحاف، في

أسمـال بـالية وقـد اجتـذبتهم أنـوار المصـابيـح والضـوضـاء والحركات غير العادية، فراحوا يحومون حول «الشاليه».

وكانت هيلين «أول من رآهم، فأطلقت صيحة قصيرة، تنبه بهـا رفاقهـا. ولمحوا بعض الأطفـال. . كائنـات صغيـرة تثيـر الشفقـة، إذ ضمرت أعضـاؤهم، وانتفخت بطونهم، وراحـوا يتأملون الغرباء بنظرات ثابتة، لا تشير بشيء. . نظرات كانت تنبعث من عيون واسعة، ذوي بهاؤها!

وغمغمت «هيلين» وقد غص حلقها: «أواه! . . . يا للصغار المساكين»

بيـد أن السيد «تـريانـا» أخذ يفـرك كفيه، وقـد بدت عليـه علامات الاغتباط. . وقال:

- أنا على يقين من أنني سأحصـل على ما أبتغيـه من صور مثيرة!

والتفت إلى «بريتام» قائلاً: «أخبرهم بأنني أريد أن يحضروا غـداً، لألتقط لهم بعض الصور الفوتوغـرافيـة! وقـل لهم أن يحضروا معهم أنحف نساء المنطقة وأشدهن ضموراً. . نسوة يعطين الإحساس بالموت جوعاً! . . إنك تفهم ما أعني. . قل لهم إني سأمنحهم «بقشيشاً» طيباً!.

ونطق «بريتام» ببعض الألفاظ السريعة مخاطباً أكبر الرجـال

سناً، فاتجهت نظرات الشيخ إلى السيد «تريانا» وظل يتأمله محدقاً فيه لحظات طويلة حتى اضطرب السيد «تريانا» وأحس بالارتباك، فأخذ يردد: «ماذا أصابه؟ ألم يفهم؟ . . أم ماذا؟.

ودمدم المواطن مخاطباً «بريتام» بشيء ما، فقام هذا بترجمة حديثه.

- صباح غد، عند شروق الشمس، عليك أن تذهب إلى أكواخهم وسيعرض عليك هؤلاء القوم كل ما تحب أن تراه! . . هل تحب أن توجه أسئلة أخرى؟

فقال «تريانا» بلهجة مفعمة بالاغتباط: «قل لهم إنني أحب أن أشهد عملية تقديم قربان بشرى!» . . وراح يطلق قهقهة صاخبة . . فرمقه «بريتام» في صمت أخرس ضحكته في حلقة، بينما تسلل الأهالي في طيات الظلام.

* * * * * *

وعندما أعد العشاء، اتخذ أفراد الجماعة الصغيـ ة أماكنهم إلى المائدة، كانت وجبة رائعة، تشهد بما لصناعة الأغذية المحفوظة من أفضال . . وتناولوا بعدها أكواباً من القهوة المسكرة، الممزوجة باللبن.

وكانت «هيلين» - خلال الغداء - تأكل بطرف شفتيها، وحين

رفعت عينيهـا ، لاحظت أن « بـريتـام » لم يمس أي طبق من الطعام ، بل انصرف إلى احتساء قهوته في رشفات صغيـرة ، غافلاً عما حوله ، وقد شـردت نظراتـه بعيداً من فـوق رؤوس المـوجودين . . وكـانت السيدة « جـوردان » تشعـر بـالقلق ، فـأخذت تقضم الـطعام دون إقبـال عليـه ، وهي تتلفت نحـو النوافذ ـ من آن إلى آخر ـ بنظرات قلقة ، تسائل الظلام الذي كان يلف « الشاليه » ، وكأنها تخشى ظهور عينين لامعتين في وجه هزيل !

أما السيد «تـريانـا» فأخـذ يأكـل بارتيـاح تام، متـذوقاً كـل الأصناف، مجففاً شفتيه بمنشفة ناصعة البياض، ملتهماً كميات ضخمة من الطعام.

وعندما بدت طلائع الفجر الجديد، كان السيد «تريانا» على أهبة الاستعداد . . وكانت الجو ينذر بيوم قائظ، والسماء شديدة الـزرقة، وعلى البعـد، كان النـاظر يمينـاً يلمح مجمـوعة من الأشجار قرب بئر جافـة، وكان الأبصـار ترتـد دائماً إلى هـذا المكان، تجذبها إليه قوة خفية لا سبيل إلى مقاومتها.

وقام السيد «تريانا» بإعداد آلة التصـوير، وعلقهـا إلى عنقه بسير من الجلد، ثم قال:

ـ حسن! . . قم معي يا «بريتام»!

وأجاب «بريتام» في برود : «كلا. لن أذهب!».

ولو أن أحداً رأى السيد «تريانا» ـ إذ ذاك ـ لخيل إليه أنه لن يلبث أن يصاب بسكتة قلبية. وكرر الشاب، بنفس لهجة اللامبالاة، قوله: «لن أذهب. ! إنني أتقاضى أجري لأريك البلد فحسب! . . وهذا هو كل عملي».

* * * * * *

مكث السيد «تريانا» مسمراً في مكانه، وقد أخرسه الذهول، وغاب عن وجهه كل إشراق. . وكان الجهد ـ الذي راح يبذله كي يكتم غضبه ـ يزيد من انتفاخ شرايين رقبته وصدغيه. . ثم وضع قبعته فوق رأسه، دون أن يضيف كلمة واحدة، وسط الضوء الباهر الذي كان يغمر السهول.

وانقضّت عليه حرارة الجو دفعة واحدة، في قسوة لا ترحم، ولكنه لم يعرها أي اهتمام. . كان الحنق والسخط يهدران في داخله! . . وكانت الأرض الوعرة تحيل سيره تعثراً، والمحصولات القليلة توشك ـ تحت لفح الشمس ـ أن تذبل في حقولها، وكان مجرى النهر قد جف من أمد بعيد وتراكمت فيه الرمال. وأخذ السيد «تريانا» يتعثر في مشيته ـ من وقت لآخر ـ فيتناثر السباب خافتاً مكتوماً من بين أسنانه، وشعر بأن ثيابه ـ على رقتها ـ ثقيلة لا يطيق تحملها، ومع حرارة الجو، فقد أخذ العرق يتفجر من جسمه غزيراً، ويملأ سترته بقعاً مبتلة،

وعلى مقربة من القرية، أخرج من جيبه منديلاً مضمخاً بالعطر، فجفف به وجهه.

كان ثمة رجال ونساء راقدون أمام الأكواخ، أو على عتبات الأبواب، وكأنهم غابوا في سبات مخيف.. ولم يكن من اليسير - لأول وهلة - أن يميز الإنسان بين الشبان منهم والشيوخ من فرط ما فعل العذاب والجوع بوجوههم.. ولم يأت أحدهم بأدنى حركة، عند اقتراب السيد «تريانا»، وإن بدت عيونهم جاحظة، محمومة، وقد اتجهت نحوه، تحملق فيه!

واتخذ السيد «تريانا» ألطف مظهر له، إذ كان بإزاء موقف فريد تماماً. وكانت سحنهم تبعث على الذهول. يا لها من مجموعة صور مثيرة سيحدث نشرها في صحيفته دوياً هائلاً!!

وفي رقة مصطنعة، مال السيد «تريانا» على سيدة شابة منبطحة فوق التراب، شبه عارية، وهي تحتضن طفلاً وليداً، وازداد السيد «تريانا» انحناء عليها، وأخذ يتفحص الطفل بعناية.. كان ميتاً!.. وكان لا يزال فاغراً شفتيه، وكأنه كان يصر - حتى بعد الموت - على طلب الزاد!

ووضع السيد «تريانا» يده الغليظة فوق كتف الأم الهزيلة البادية العظام. كل ما كان يبغيه هو أن تخرج الأم من منطقة

الظل، كي يلتقط لها صورة فوتوغرافية. ولكن حركته فجَّرت في ذلك الجو الساخن ما يشبه الصدمة الكهربائية، فتراجع إلى الوراء خطوة، وتطلع إلى ما يدور حوله!..

كان الرجال والنساء جميعاً قد نهضوا في حركة واحدة مرنة، وفي صمت، كأنهم أشباح في كابوس مزعج.. كانت المساكن قائمة على ثلاثة أضلاع من منطقة مربعة.. أما الضلع الرابع، فكان المخرج الوحيد من القرية.. وعند هذا المخرج، تجمع القوم كشخصيات في إحدى الرقصات الخرافية، فقطعوا بذلك خط الرجعة على السيد «تريانا».. وأخذوا يتقدمون نحوه في صمت رهيب!..، ورأى السيد «تريانا» عشرات النظرات المتقدة المسلطة عليه.. نظرات تنم عن تصميم لا يرد. ومضوا يقتربون، ويقتربون، ويزدادون اقتراباً!

وسرت في أوصاله رعشة رعب.. وراح يتراجع ـ وقد استسلم للخوف ـ بدافع غريزي ـ حتى أحس بجدار ساخن خلفه، فاستند إليه. محالٌ أن يمضي إلى أبعد من ذلك!.. ومن كل الجهات حوله، ظلت ترمقه عيون قريبة، يُصليه بريقها ويحطمه.. عيون داكنة في وجوه داكنة، غامضة، قاسية ملتهبة.

ها هو ذا يشتمُّ رائحتهم!.. كان كمن يترقب نهايته، دون

أن يأتي بمجرد حركة يدافع بها عن نفسه، وبيد مرتعدة، فتح سترته، وأخرج من جيبه حافظة منتفخة بأوراق النقد.. وتلعثم قائلاً، وهو ينزع حفنة من الأوراق المالية التي بسطها:

- خذوا!.. هذه لكم!!

وسقطت الأوراق من يده وديست بالأقدام، وأجهز هذا الاحتقار - الذي قوبل به المال - على أعصابه وحطمها نهائياً، فانهار.. وصرخ: «النجدة»! ولكن صوته ارتد إليه مرتعشاً، بالغ الضعف!

- النجدة! النجدة!

العيون.. الوجوه.. كل شيء ضده!.. وبغتة برزت أطراف الخناجر تومض شرراً تحت أشعة الشمس، صرخة مكروب، حادة ومتصلة!.. وفي السماء ذات الشمس الحارقة، شرعت العقبان تحوم.. بلا عجلة، بل في هوادة.

وفي الشاليه «انقضى النهار ببطء، ولم يظهر السيد «تريانا» وقت الغداء، ولكن أحداً لم يسرف في القلق عليه، وإن كانت دقات الطبول الأولى قد أثارت في نفوسهم شعوراً غامضاً بعدم الارتياح.. إذ كانت دقات الطبول تتصاعد - وسط وهج القيظ - بطيئة في البداية، كأنها وجيب قلب هامد.. ثم أخذت تزداد سرعة وشدة، حتى أصبحت تدوي بوحشية ضارية..

وسرعان ما امتلأ الجو كله بهذه الدقات الظافرة، يصاحبها ترنيم رتيب، رهيب!

* * *

وتناهت كل هذه الضوضاء إلى الجالسين في «الشاليه» فأخذ تتابعها السريع يلقي في قلوبهم رعباً لا سبيل إلى وصفه!

وحينما قرروا ـ أخيراً ـ أن يخرجوا للبحث عن السيد «تريانا» وجدوا الطبول تحاصرهم من كل اتجاه.. شعروا بها أمامهم، وخلفهم.. وكانت تدور، وتدوي، في نشوة عاطفة بدائية هوجاء!

ولو ير أحد السيد «تريانا» بل اصطدمت أبصارهم بوجوه خالية من كل تعبير.. وجوه جامدة، لا سبيل إلى النفاذ إلى ما ورائها.. وكأنما أصيب أهل القرية بالعمى، فلم يكونوا يبصرون.. وبالصمم، فلم يعودوا يسمعون!

ولم يُلح الأغراب في سؤال القوم.. وما كانت بهم حاجة إلى السؤال إذ أن المخاوف التي خامرتهم، سرعان ما تجسدت أمام أبصارهم.. جسَّدها منظر الطيور السوداء تحوم في السماء، ثم تَحُطُّ على مكان قريب.. وسَعَوْا إلى ذلك المكان، فانزعجت الطيور الجارحة، وطارت.. وتبين الأغراب أنها كانت تحط على جثة السيد «تريانا».. والحق

أنهم لم يتعرفوا على الجثة إلا بالحدس . . أو ما يشبه الحدس!

ودثــروه في مــلاءة بيضـــاء، ورفعـــوه إلى سيـــارة النقـــل الصغيــرة . . وكـانت السيــدة «جـوردان» تئن بصـــوت واهن مبحـــوح . . وراحت «هيلين» تــتــطلع، وقــد نضبت دمــاء وجهها - إلى «بريتام» وكأنها تهم بأن توجه إليه سؤالاً ما!

ولم يكن «بريتام» قد فقد شيئاً من هدوئه، مما مكنه من أن يعجل باتخاذ التدابير للرحيل . .

وعندما همـوا بمغادرة المكـان، بدأت الأمـطار تتساقط. قطرات ضخمة ثقيلة، أخذت تزداد غـزارة، حتى تحولت إلى سيل تدفق فوق سقف السيارة، بينما كان قصف الرعود يتتابع في هدير !

وتطلع الثلاثة الذين كانوا في السيارة، كل إلى الآخر، في صمت . .

ومن خلال خريـر المياه المتـدفقة، وهـزيم الرعـود، ظلوا يسمعون دقات الطبول المنتصرة، الظافرة، وكأنهـا تنبعث من أحشاء الأرض ذاتها . . الأرض الجـائعة، التي أخـذت قوتهـا تعود إليها من جديد، في تلك اللحظات.

* * *

الحسد

للكاتب الفرنسي :
تأليف : دانيـيل بولانجيه

ها هو ذا السيد غريسّار واقف داخل مكتبة دار البلدية، وقد شبك إبهاميه في جيبي صديـريته، بشـاربه المقـوس، وساقـه المحنية داخل بنطلونه الأصفر، وقد انغلقت عيناه أمام الدخان المتصاعد من عقب السيجارة الذي لا يفارق شفتيه. إنه غارق في تأمل وضع البشرية ومصير الإنسان في هذا الـوجود: إننـا نقوم من عثرة لنسقط في عثرة. هذا شيء واضح. وبين هاتين الهوّتين عُقد من الأيـام. عقد؟ بـل قضيب. أو بمعنى أصح : كُرتان سوداوان في طرفي القضيب. أو بمعنى آخـر: الإنسان هـو حامـل أثقال العـدم. أو بمعنى ثالث: الإنسـان هو ربّـاع العـدم. ها!.. وأخـرج أمين المكتبة بـإحدى يـديـه خَلّة من الصديرية، وبالأخرى اختار أحد الأقلام السبعة التي يزين بها صـدره، القلم الأسـود، المخصص لـلأيـام السعيـدة، وراح

يسجل فكرته. وبعد أن جففها بالنشاف، نهض، وأعاد إشعال عقب السيجارة، ورنا إلى الجملة التي سجلها، وجعل يقرؤها بكل تؤدة: «الإنسان هو ربّاع العدم».

أصبح لدى غريسّار القناعة بأنه لم يضيع يومه عبثاً، ولف سيجارة أخرى وجلس في الكرسي ذي الذراعين، الذي مات عليه اسكندر فانتون العظيم، الذي أطلق اسمه على أحد شوارع المدينة، ويمكن أن نرى تمثاله النصفي الذي يتوسط ميدان المحطة، وقد نُقش على قاعدته هذه العبارة: «اعترافاً بفضل إسكندر فانتون على المدينة». تمثال من البرونز يصوره واقفاً وقد خطا للأمام خطوة، وبسط ذراعه مشيراً بسبابته إلى فندق المحطة وطرح رأسه خفيفاً إلى الوراء في هيئة المحامي الكبير، أما يده الأخرى فتحط على ظهر كلب كبير من البرونز أيضاً.

فمن المعروف أن إسكندر فانتون هو واضع طريقة في تدريب الكلاب حققت شهرة واسعة في أواخر القرن الماضي، وقد ظل بعض الجنود في أوائل حرب ١٩١٤ م يطلقون على كلابهم اسم فانتون. وحرى بالذكر أن إسكندر فانتون قد أوصى بكل ما يملك وبجميع حقوقه لصالح مدينته. وبعد سداد ديونه، بقي ما أنفقته البلدية على إقامة تمثاله (كان هذا أحد شروط الوصية) والكرسي ذو الذراعين الذي مات عليه

(والـذي تنص الـوصيـة أيضـاً على ألا يبـاع وأن يؤول إلى المكتبة). وقد اختيـر لهذا الكـرسي مكان بـالقرب من نـافذة المكتبة بالطابق الأول من مبنى البلدية.

وقد جرت العادة على ربط ذراعي الكرسي بشريط حريري يمنـع الجمهـور من الجلوس عليـه. غيـر أن غـريسّـار، أمين المكتبة، كان ينتهز فترات الراحة في المكتبـة ويرفـع الشريط ويغفو فوقه. وهو لا يفعل ذلك لأنه يستطيب الجلوس على هذا الكرسي، ولكنه يشعر بحقد دفين ضد إسكندر فانتون وينفّس عنه بالتمرغ فيما بقي منه بعد وفاته. ولطالما سخر غريسّار من تمثال الفقيد، ولم يدع فرصة للتقليل من شأنه إلا واستغلهـا. بل إنه نظم قصيدة في هجائه، تعبر عن حقده الدفين. غير أن النتيجة جاءت عكس ما أراد. فقد جعلت هذه القصيدة كل من لم يسمع بإسكندر فانتون يذهب لمشاهدة تمثاله ويعجب به. بل لقد صوّت مجلس البلدية بوضع زهور عند قاعدة التمثال، وزراعة دائرة من العشب حوله.

كان غريسّار ينتقم من الكرسي، فكان يترك رمـاد السيجارة يسقط فوقه، ويثقل عليه فيجعله يئن تحت عبئه في كل غفـوة يغفوها، محدثاً فيه كل نوع من الضوضاء المزرية. كان يضيق بكل ما عملته المدينة تخليداً لذكرى إسكندر فانتون: يخلدون ذكـرى مروض للكـلاب ويتجاهلون القيم الحقيقيـة، النفوس

العالية، المفكرين، الساهرين، هذه هي الكلمة: الساهرون. شيء مضحك، وراح غريسّار يضحك حتى الحشرجة، ويضرب على ذراعي الكرسي. ولكن طراز لويس فيليب طراز متين، فلم يجن غريسّار من ذلك إلاّ ألم يديه، واليقظة الكاملة. ثم أعاد ربط الشريط في ذراعي الكرسي، وبِرْكْلةٍ من قدمه، ألقى بالكرسي بعيداً ثم عاد هو إلى بطاقاته وكتابة أفكاره، فسجل العبارات التالية:

«إن كراهيتنا للأشياء كراهية صادقة حقيقية، فما أكثر ما يخفف عنا إساءةُ معاملتها».

«إن الأشياء تستهلكنا أكثر مما نستهلكها».

«إذا رسمت شيئاً ثم طمسته فهذا دليل على رغبتك في قتله وشجاعتك على إعلان ذلك».

«إن الأشياء قشورنا».

ثم نهض غريسّار، وسحب نَفَساً من الدخان، ورمق الكرسي بعين الازدراء، من بعيد، كأنما الكرسي من الممكن أن ينقض عليه. وفي بعض الأحيان تثور ثائرة غريسار، وينهال على الكرسي بالسباب، ولا يهدأ إلا إذا وجد عبارة ينفس بها عن غضبه:

- الإسكندر الأحمق!. ها! ها!

وفي عصر ذلك اليوم، دخل المكتبة طالبان وسيدة، وعاملان والصيدلي لكي يستعيروا بعض الكتب، وفي الخامسة، تناول غريسَّار قبعته لكي ينصرف حينما دخل عليه ابن العمدة، فلم يجرؤ أن يقول له إن الوقت متأخر. وراح الولد يفتح درج البطاقات التي تحتوي على كتب المغامرات وبدأ يبحث. وهنا أخرج غريسَّار من جيبه مقصاً وبدأ يقص أظافره، وهو ينفخ من الضيق.

ـ هل وجدت شيئاً؟
ـ أنا أبحث.
ـ الوقت متأخر.

وكشر غريسَّار عن أسنانه، خاصة وهو يتصور أن والد هذا الغلام هو الذي دعا إلى التصويت على وضع الزهور وزراعة النجيل حول التمثال، وعلى حين بغتة شعر بإسكندر فانتون يصعد إلى حلقه، فتقدم من الكرسي وركله بقدمه، ولاحظ غريسار أن الغلام شاهده فتظاهر بأن قدمه قد زلت وسقط متشبِّثاً بالكرسي، فصاح الغلام وهو يقترب منه:

ـ هل أصابك مكروه؟

ولم يجب غريسَّار، ومكث جالساً على ركبتيه، وهنا ظهرت من بطانة الكرسي أوراق، ورآها الغلام أيضاً، فاتسعت

حدقتاه. وقال لأمين المكتبة وقد علت الفرحة وجهه:

ـ أنت اكتشفت ثروة يا سيد غريسار.

كان الوقت متأخراً جداً، وكان عليه أن يلملم الأوراق أمام هذا الغلام، هذا الشاهد الوحيد الذي لن يلبث أن ينقل كل شيء، ولمن؟ للعمدة.

كانت الأوراق عبارة عن مخطوط خاص بإسكندر فانتون، قصائد كتبها في شبابه. فقامت بلدية المدينة بنشرها، وقدّمت لأمين المكتبة التهنئة على اكتشافه لها، كما قام المسئولون في المدينة بحفر العبارة التالية على قاعدة التمثال:

«عالم ، وصديق للحيوانات، وشاعر فرنسي».

وأقيم بهذه المناسبة احتفال كبير. كان لا بد أن يحضره غريسّار لكي يقرأ على جمهور الحاضرين كلمة عرفان وتقدير لإسكندر فانتون، كان العمدة قد رجاه أن يكتبها. ولاحظ الجميع شحوباً شديداً على وجه غريسّار، فهنأوه على كلمته وعلى تأثره العميق.

الابن والأم

تأليف: جواران هيـزاءو

تلقى مـدرس الصف الأول بإحـدى المدارس الابتـدائيـة، الواقعة بالقرب من المعسكر الأمريكي، استدعاء من الشـرطة المحلية في (أستوجي)، بصدد أمر يتعلّق بأحد تلاميذه. . .، وحين كان في حجرة الانتظار دخل المأمور، وتبعته سيدة تتألق عيناها بحيوية طـاغية، أثـارت دهشة المـدرس. . .، وقدمهـا المـأمـور إليــه قـائــلاً، وهـو يجلس في مـــواجهتـه: «آسف لإزعاجك. . . الآنسة مشرفة اجتماعية في إدارة إصلاح النشء في المـدينة. . ولمـا كان قسم الشـرطة التـابع لنـا قد أنشىء حديثاً، وليس لـدينا قسم خـاص بالأحـداث، فقد طلبنـا إلى الآنسة الحضور لمعاونتنا، وأودُّ أن أخبرك بأن الموضوع الذي استدعيناك من أجله ليس خطيراً، فلا داعي لأن تقلق!».

وتـدخلت المشرفـة قائلة: «إن المـوضوع كمـا ذكر السيـد

المـأمـور ليس خـطيـراً في حــدِّ ذاتـه. . . فــإن تلميـذك لم يرتكب ـ في الواقع ـ جريمة كبرى. . . . كل ما هنالك أنه قام بإشعال النار في حصن قديم، ولكن بعض المهمات المملوكة للأمريكيين كانت مودعة في هذا الحصن، ونحن بالطبع نشك في أن يكون هذا الغلام قد أشعل النار متعمداً. . . لا بدَّ أنـه كان يلعب لعبة القراصنة، أو أي شيء من هذا القبيل. . . غير أنه يرفض بإصرار أن يفتح فمه، ونحن في حاجة إلى أي عذر أو تعليل نذكره في التحقيق!».

وقـال المأمـور: «إننا لا نـريـد أن نحتجـزه هنـا أكثـر ممـا احتجزناه، ولكننا لا نستطيع أن نخلي سبيله ما دام التحقيق لم ينته، ولذلك طلبنا إليك الحضور، فأنت معلمه، ولا بـدَّ أنك تعرف عنه ما يزودنا ببعض المعلومات عن طباعه، وعن حياته العائلية، وما إلى ذلك. . . ومن ثم نستـطيع أن نكتب تقـريراً بنتيجة التحقيق، ونطلق سراحه».

فـانحنى المدرِّس في أدب وقـال: «لا يسعني إلاَّ أن أشكر لك المشقَّة التي تجشمتها من أجل هـذا الطفـل؟. . .، فقال المأمور: «لندخل في الموضوع!».

* * * * * *

وفتحت المشرفة ملفاً، وأخذت تقرأ بعض ما جاء فيه:

«ثـارو تزومي . . . ستـة عشر عـاماً وشهـران . . . ولـد في (سابيان)، وهو الآن بالفصل الدراسي الثاني من السنة الأولى بمـدرسة «سـان جـوزيف» الابتـدائيـة ويتمتـع بمنحـة «أدان» الدراسية . . . ، كـان والده يعمـل خبيراً في الأرصـاد لحساب مكتب الإدارة اليـاباني، وتـوفي عام ١٩٤٠ ، أمـا أمه فكـانت مـوظفة في شـركة «نـانيو كـاهاتـو»، ومن المرجـح أنها لقيت مصرعها عند استيلاء الأمريكيين على (سابيان) . . . » .

ثم وجهت المشرفة الكلام إلى المدرس قائلة : «كيف يكون ثارو في مثل هذه السن، ولا يزال في الصف الأول؟ . . . إنـه متأخر، أليس كذلك؟ »

فقـال المدرس : «عنـد انتهاء الحـرب، أرسل «ثـارو» إلى (هاواي) مع مجمـوعة من الأيتـام، وألحق بإحـدى المدارس الأمريكية التي تكاد أن تكون معادلة لمدارسنا الإعدادية، وقد قضى بهـا ست سنوات، جـاء بعـدهـا إلى اليـابـان، وسجـل بمدرسة «سـان جوزيف» . . . وكـان من المفروض أن يلتحق بـالصف الخامس، إلاَّ أن معـرفتـه بـاللغـة اليـابـانيـة لم تكن كافية . . . . » .

ـ ماذا تقصد بمنحة «أدان»؟

ـ إنهـا ليست منحة بـالمعنى الـدقيق . . . كـان «أدان» ضـابط

استعلامات أمريكياً مسئولاً عن الأيتام في (سابيان)، فاختار منهم خمسة تكفل هو شخصياً بنفقات دراستهم، بشرط أن يتجهوا فيما بعد إلى علم اللاهوت. . . ، ولدينا ثلاثة من هؤلاء الأطفال في مدرسة «سان جوزيف».

- عندما مات والد «ثارو» كان الطفل في الرابعة من عمره. . . فالأرجح أنه لا يتذكره، أما أمه، فهل تستطيع أن تحدثنا أي صنف من النساء كانت».

- كانت من ذلك الصنف من النساء الذي يمكن أن نسميه بالنساء المثقفات. . . ، فقد كانت حاصلة على شهادة من جامعة (طوكيو)، وكانت مديرة الموظفات بالشركة التي كانت تعمل بها في (سابيان). . . ، ولكنها بعد ذلك قامت بإنشاء مركز للترفيه عن الضباط يسمى «هاللو». . . ، وكانت جميلة جداً ، بل مفرطة في الجمال . . . ، فكانت النساء يكرهنها !» .

وهل كان الطفل يعيش في هذا الوسط؟

- كلا، فقد ذكرت لك أن أمه كانت مفرطة في الجمال، ومن ثم كانت فرص اللهو والمتعة كثيرة أمامها، فكانت مشغولة لدرجة لا تستطيع معها أن تهتم بالطفل، ولذلك عهدت به إلى مبشر في إحدى جزر المحيط الهادي، كان يعيش هناك منذ

أيام سيطرة الألمان على تلك الجزر!.

ـ إذن، فالطفل لم يتأثر ـ أيما تأثير ـ بالحياة التي كانت تحياها أمه؟

ـ كلا، بل إنه يجهل تماماً ما يمكن أن يعرفه شاب في مثل سنه عادة. . .، فمثلاً هو لم يذهب إلى السينما مطلقاً. . .، وهو مجتهد في عمله ولكنه يحيا حياة صارمة قاسية، إلى درجة تثير قلقي في بعض الأحيان!.

فقالت المشرفة، وهي تقلِّب صفحات الملف الخاص بالغلام:

ـ جائز!. . . ولكن هل علمت أنه في الثالث من مايو، تنكر في زيٍّ فتاة، وراح يبيع زهوراً في حي (جينزا)؟. . لقد لمحته إحدى زميلاتي ووجهت إليه إنذاراً. . .، وهل تعرف أنه استدرج ـ في يوم من الأيام ـ بعض الجنود الأمريكيين من أمام باب المعسكر، واصطحبهم إلى طوكيو. . .، ومنذ أيام قليلة، وجدوه ـ في الساعة الثالثة صباحاً ـ بالقرب من محطة (أبربا) على خط قطار (سجاني)، وهو في أشد حالات السكر. . .، وكاد أن يدهمه قطار الصباح لولا أنه أنقذ في آخر لحظة؟

وسادت ـ بعد ذلك ـ لحظة صمت، لم يكن يقطعها سوى

صفير الرياح التي كانت تعوي خلال الأعشاب الجافة في الحقول.

* * * * * *

وما لبثت المشرفة أن قالت، محاولة أن تخفف من ألم المدرس:

- إنك تعرف الطفل منذ زمن بعيد، وأنا واثقة من أنك لم تكن تتخيله إلّا في أفضل صورة، وأنه لم يرتكب أمامك أبداً ما يضطرك لأن تلومه أو توبخه... ولكن من الجائز أن تكون أخلاقه قد تغيرت في المدة الأخيرة...، أصبح يتنكر في صورة فتاة، ويسكر، ويلعب لعبة القراصنة، ويلهو بإشعال النار في مكان من المحظور دخوله حظراً تاماً...، هذه الأعمال التي تختلف في صورتها، ولكنها تشكل نهجاً واحداً من السلوك، يبدو أنها تعبير عن التمرد على سائر الأوضاع...، أو ربما كان مصاباً بخلل نفسي...، ولكن لا بد أن يكون ثمة سبب أساسي لهذا التحول...، إن الشخصية لا تتحول هكذا بين يوم وليلة، ومن المحتمل أن تكون هناك ذكرى مؤلمة تدفعه لأن يتصرف على هذا النحو...، فهل تستطيع أن تمدَّنا بأي معلومات في هذا الشأن؟.

فقال المدرس، وهو يهزُّ رأسه: «لست أعلم إن كان الحادث الذي أعرفه سيفيدكم، ولكنه - بلا شك - قد أثر في

«ثارو» تأثيراً شديداً. . . ، فقد حاولت أمه أن تقتله يوماً، وقد عثرنا عليه فاقد الوعي تحت إحدى الأشجار، في هضبة (شيما لينا)، وقد التف حبل حول رقبته ثلاث لفَّات، وكان يضغط على رقبته ضغطاً شديداً، حتى إننا لقينا مشقة في فكه وإزالته، إذ كان مدهوناً بالصابون، ليسهل انزلاقه!. . . ومع أننا أدركنا الدافع وراء هذه الجريمة، فإنها - من ناحية العقل والضمير - كادت تخرجنا عن وعينا، وقد تجشمنا مشقة كبيرة في إعادة الحياة إلى «ثارو» حتى لقد كنا في شك كبير من أن الروح ستعود إليه، ونقلناه في سيارة «جيب» إلى المستشفى العسكري، بعد أن أجرينا له عملية التنفس الصناعي. . . ، في ذلك الحين - كما تعلمون - انتحر ثلاثون ألفاً من اليابانيين المدنيين، إذ كانوا على ثقة من أن الأمريكيين سيقتلونهم على أي حال!. . ، انتحرت عائلات بأسرها بالقنابل اليدوية. . . ، وهناك عائلات أمسك كلُّ فرد من أفرادها بيد الآخرين، وألقوا بأنفسهم من فوق الجبال إلى البحر. . . ، ولكن، في جميع هذه الحالات كانت الجثث توجد مجتمعة، أما حالة «ثارو»؛ فهي الوحيدة التي وجد فيها طفل واحد بمفرده!».

وساد الصمت هنيهة، ثم قطعه المأمور قائلاً:

«إنها قصَّة رهيبة!». . . ، وأردف - بعد لحظة - قائلاً: «لا بدَّ أن هذا الحادث كان ذا تأثير عميق في نفسية الطفل!».

وتململ المدرس قليلاً في مقعده، ثم قال: «وهل أستطيع أن أراه الآن؟ . . أودُّ أن أوجه إليه بعض الأسئلة. . . ، وقد خطرت لي فكرة، قد تهدينا إلى الطريق» . . . . فقال المأمور: «بكلٍّ تأكيد!» .

وقادته المشرفة إلى باب في الناحية اليسرى، قائلة له: «من هنا لو سمحت!» .

* * * *

كان «ثارو» جالساً على الأرض، في غرفة ضيِّقة مظلمة، مخصصة للشبان الموضوعين تحت المراقبة، وكان يتأمل السماء خلال نافذة صغيرة، كأنها فتحة في قفص عصفور، وهو يفكر في الأيام الأخيرة التي قضاها في (سابيان) .

كان الظلام الخافت، والرطوبة اللزجة، والسماء المعتمة، والصمت الشامل، والإعياء الشديد. . ، هذه كلها كانت تذكِّره بمغارة (سابيان)، قبل سنوات. . . حيث كانت الصخور مغطاة بالطحالب، والظلمة والرطوبة يجثمان طوال النهار والليل. . . فلم تكن الشمس تعرف طريقاً للمغارة إلاَّ قبيل أفولها إذ ترسل بصيصاً منها، فينير جدران المغارة، ويكشف وجوه المختبئين فيها! . . كانت هناك فتاة لم يبق منها سوى الجلد والعظم، وقد راحت تبحث - بين الصخور - عن بعض حبات ساقطة من

الأرز، فتلتقطها وتفركها ثم تأكلها واحدة بعد واحدة! . . وكان خلفها جندي زائغ العينين، أخذ يسدُّ رمقه بالعشب البري، وقد سالت عصارة خضراء على زاويتي فمه! . . ثم لم يلبث هذا المشهد أن اختفى في أدراج الظلام.

وفي أحد تلك الأيام، قال «ثارو» في نفسه: «حان وقت الذهاب لإحضار الماء». . . كان ينتظر هذه اللحظة نافد الصبر، فمنذ أن أقام في المغارة وهو يشعر بسعادة غامرة لوجوده بصحبة أمه، وقيامه بخدمتها! . . . . كان ينتظر منها كلمة، وقد تعلَّقت عيناه بمحياها الجذاب. . . ولم تلبث أن قالت له: «اذهب لتحضر لي ماء يا ثارو!». . . كان حين يسمع صوتها ينتفض حباً وحنيناً، وكان على استعداد لأن يعمل أي شيء من أجلها.

وكان نبع الماء العذب على مسافة خمسين متراً أسفل المغارة، فكان لزاماً عليه أن يتدلَّى على طول الصخرة المدببة كلّ هذه المسافة، ممَّا كان يسبب له الدوار، ولو أنه لم يكن يحمل إلَّا زجاجة فارغة . . . فضلاً عن أن الجنود الأمريكيين الواقفين فوق الصخرة، كانوا يطلقون النار على كلِّ شيء يتحرك! . . ولكن «ثارو» لم يكن خائفاً على الإطلاق، ولم يكن مدركاً للخطر بأية حال. . . ، وإنما كانت السعادة تفيض في قلبه، إذ يشعر بأن في وسعه أن يقدِّم إلى أمه شربة ماء! . .

وحدَّث نفسه قائلاً: «كم كان عمري حنيذاك؟». . . ، ثم راح ـ وهو يحكُّ رأسه في جدار «الزنزانة» ـ يتلو عن ظهر قلب: «أيها العابر، اذهب وقل لِلَّاسِيديمون، إننا تنفيذاً لأوامر الملك، نرقد هنا». . . ، وكانت أمه قد لقنته القصيدة وجعلته يكررها مراراً حتى حفظها. .

وقالت له أمه: «إن (لاسِيديمون) هي (اسبرطة). . . ، وقد تصدَّت حفنة من جنودها ـ قبل ألفي عام ـ لجيوش الفرس، وأوقفت زحفها، في مكان يسمى (ترموبولين). . . وماتوا جميعاً في المعركة، فأقيم ـ في ذلك المكان ـ نصب كتبت عليه هذه الكلمات. . . ألم يكن أولئك الأسبرطيون شجعاناً؟ . . يجب ألا ننساهم!».

كانت أمه تحاول ـ بالأحلام الجميلة ـ أن تنسيه قسوة تلك الأوقات الرهيبة. . . ، ولكن الكارثة لم تلبث أن حلَّت أخيراً. . . وإنه ليتذكر كيف أن الآباء والأبناء كانوا يتماسكون، ثم يلقون بأنفسهم من أعلى الجبل متعانقين، أو مربوطين جميعاً بحبل متين. . . ، وكانت مياه البحر تتلقاهم. . . ، وفي كلِّ يوم، كانت تختفي مجموعات أمام عينيه بهذه الطريقة! . . . ، وكان «ثارو» يتصوَّر أنه سيرتمي في البحر ـ في النهاية ـ وهو ممسك بيد أمه، ولذلك لم يكن يشعر بأي خوف أو حزن على الإطلاق! . . .

وكـانت الشمس الآفلة تصبغ السمـاء بلون وردي شاحب، في تلك الأمسية الهادئة التي تناولت فيها أمه حبلاً، وطلبت منه أن يخرج معها من المغـارة وهي تقول لـه: «إنك لا تحب أن أفعـل بك هـذا على مشهد من كـلٍ هؤلاء القوم، فتعـال إلى الخارج!».

وفي تلك اللحـظة، لم يكن «ثـارو» يتصـوَّر أنـه سيمـوت بمفـرده... ولكنـه حين أدرك أنهـا تنـوي أن تخنقــه، أذعن لإرادتهـا، وسار وراءهـا حتى أعلى الجبل، مبـدياً لهـا وجهـاً مشرقاً باسماً... كي يسعدها!.

* * * * * *

(٢)

أقبلت المشرفة فقادت «ثارو» إلى الغرفة المجـاورة، حيث جلس - على المنصة - المدرس الذي كان يعرفه «ثارو» ورفاقه باسم «سان جان».

وكان «سان جان» رجلاً من (أوكيناوا)، يعمل مديراً لمزارع قصب السكر في (سابيان)...

وتقدم منه «ثارو» فراح المـدرس يعظه بـطريقته المعتـادة، التي كانت تبعث على الضيق ....، وبينما كان «ثارو» يصغي إليه، وهو مـطأطأ الـرأس وقعت عينه الشـاردة على المسدس

المتدلّي من حزام شرطي كان جالساً يكتب على منضدة بجوار الجدار. . . ، فقال في نفسه: «هذا المسدس من نفس النوع»، . . وقد خطر بباله مسدس كان أحد ضبّاط البحرية قد سمح له ـ حين كان في المغارة ـ أن يلعب به! .

وواصل المدرس لومه، قائلاً: «إنك تنكرت في زيٍّ فتاة، ورحت تبيع الزهور في حي (جينزا)». . . ، فتساءل «ثارو» ـ في نفسه ـ عمن يمكن أن يكون قد أخبر المدرس بهذه الأمور. . . ، أهي المشرفة! أم «توناكو» زميله في الدراسة، الذي أعاره رداء الفتاة؟

واستطرد المدرس متسائلاً: «إنك لا تحب أن تكون عالة على غيرك، ولذلك فكرت في أن تكسب عيشك بنفسك، أليس كذلك؟ وإنني لأحترم نزوعك إلى الاستقلال، ولكن ما الذي يدعوك إلى أن تتنكر في زي فتاة، وتبيع الزهور؟ .

قال «ثارو» في نفسه: «أما في هذه فإنك أخطأت!». . . ، لقد ارتدى زي بائعة زهور حقاً، ولكنه لم يكن يبيع زهوراً. . . ، إن المدرس لم يكن يدري شيئاً! . . .

كان «ثارو» قد سمع في (هونولولو) أن أمه تدير حانة في (جينزا). . . فما أن وصل إلى طوكيو حتى بحث عن الحانة. . . ، واهتدى إليها، ولكن دخول الحانات محظور على

الأحـداث، فيما عـدا بـائعـات الـزهـور، وعـازفـات «الأوكورديون». . . والجميع يعرفـون ذلك!. . فمـا كـان من «ثارو» إلا أن استعار رداء بائعة زهور، ولبسه في أمسية يوم من أيام الأحد ـ ثم توجه إلى الحانة التي كانت أمه تديرهـا. . .، ولم يكن بها روَّاد كثيرون، وكانت أمه منحرفة المزاج، فما أن رأته حتى صرخت في وجهه في غضب: «يا لك من وقح! . . . كم مرة حاولت أن تدخل هنـا! . . . إن روَّادي لا يرغبـون في زهورك!». وفي مرَّة أخرى، أمسكت أمّـه بثـوبه، وألقت بـه إلى خارج الحانة. . .، ومع ذلك فقد عاد ثانية! . .

* * * * * *

ومضى المدرس (سان جان) في توبيخه قائلاً: «. . . وكنت تصحب ـ في سيارات الأجرة ـ أناساً ممن يأتون من (كوريا)» في أيام السبت، وقد جلب عليك هذا العمل بعض المال، ولكنني أشعـر بـالأسف حين أتصـوَّر أنـك تستغـل معـرفتـك بـاللغـة الإنجليزية في هذه الأغراض الوضيعة؟».

وهنا قال «ثارو» في نفسه: «وهذه المرة أيضاً، لم تفهم شيئاً يا (سان جان)! . . ، فأنا لم أكن أسعى لكسب النقود لنفسي، وإنما رأيت أن رواد الحانة ـ التي كانت أمي تديرها ـ قليلون، فحاولت أن أجيئها بمزيد من الروَّاد»!

لقد أراد أن يساعـد أمه دون أن تعلم، ولكنـه ارتكب خطأ جسيمـاً، ذهب يومـاً إلى حانـة صغيرة، بـالقرب من معسكـر (فيـزقام) ـ الـذي يعتبر ملتقى لسـائقي سيـارات الأجـرة ـ كي يطلب سيارة ، فبادره أحد السائقين قائلاً: «إن صاحبة الحانة التي تتحدث عنها هي أمك، أليس كذلك؟ . . إنك حقّـاً ولد بار جداً، ولكن هل تعلم أيها الصغير ما تفعله أمك مع الرجال الذين تذهب بهم إليها؟؟».

وإذ سكت «ثارو» أردف السائق قائلاً: «إذا كنت لا تعرف، فسأتيح لك معرفة ذلك!». . . ثم استدعى سائقاً آخر وأشار له نحو «ثارو» وأسر في أذنه كلمات. . .

في تلك الليلة، عاد «ثارو» متأخراً إلى عنبر نومه في مدرسة «سان جان» وارتمى فوق سريره وهو يتلوى من الألم. . . ، إن أمه لم تعد أمه. . . . . أنها ليست سوى امرأة! . . . ولم تعـد لديه رغبة في هذه الحياة التي أفاق فجأة، فوجدها بهذا القدر من القسوة والخسة! . .

وأراد أن يموت في تلك الليلة بالذات، فأخرج من خزانتـه كلَّ صور أمه وخطاباتها، ومـزقها وألقى بهـا في وعاء القمـامة بالمطبخ، وتطلَّع حـوله خشيـة أن يكون قـد نسي شيئاً منهـا، ولكنه لم يكن قد نسي شيئاً على الإطلاق. . . . وحين أدرك أن

كـل ما بقي عليـه أن يفعله، هو أن ينـام قليلاً قبـل مرور أول قـطار، صدم لقصـر الفترة التي بقيت لـه في الحياة، فـانفجر باكياً!.

* * * * * *

واستـطرد المدرس «سـان جان». بلهجـة التأنيب والاتهـام قـائـلاً: «. . . ولقـد انتقلت من سيء إلى أسـوأ. . . هـذا طبيعي! . . . ويبدو أنك كنت تسير مخموراً تماماً، على طول خط السكة الحديدية، وكان مصرعك وشيك الحدوث. . . ما كنت أظن مطلقاً أن من الممكن أن تنحدر إلى درجة أن تشرب الخمر وتسير مخموراً!».

فقـال «ثارو» في نفسـه: «هـذا صحيـح، ولكنـه في نفس الـوقت خـطأ!، فـأنـا لم أكن قـد شـربت خمـراً، ولكن من المحتمل أنني كنت أترنح كالمخمور! . . . كان الفجر وشيكاً، والمصابيح الكهربائية ترسل نورها على طول رصيف المحطة، وعلامة الإشارة مفتوحة إيذاناً بأن قطار الصباح لن يلبث أن يمر بين لحظة وأخرى، فخلعت سترتي، وألقيت بها فوق العشب، ثم استلقيت منبطحاً بين قضبان السكة الحديدية، أنتظر أن يمر القـطار فوق جسـدي، ولقد مـرَّ القـطار، ولكنـه لم يمسَّني، وسمعت العامل الذي أخذني إلى ناظر المحطة، يقول له: «لو كان يرتدي سترة، لعلقت أطرافها بـالقطار، وقضي عليـه، إذ

كان ينام بين القضبان. . . ، ولكنه لم يكن يرتدي إلاَّ قميصاً، وهذا هو الذي أنقذه!».

بيد أن فكرة الموت ظلَّت تسيطر على «ثارو»، وفي ليلة من ليالي الخريف سرق بعض البترول من المطبخ، واجتاز الحقل المترامي خلف عنبر النوم، ودخل خندقاً متهدماً. . . ثم سكب البترول فوق جسمه، وأشعل النار في أكمامه. . . ولكن الاشتعال كان ضعيفاً، فإن البترول الحديث لا يلتهب بسرعة كالبترول القديم. . . ، وسرعان ما أطفأت الرياح اللهب الضعيف، فحاول مستميتاً أن يشعل النار ـ من جديد ـ في أماكن أخرى من ملابسه، ولكن الاحتراق كان بطيئاً، وقد تصاعد دخان لفت الأنظار، فلم يلبث الناس أن حضروا، فوجدوا «ثارو» مختنقاً من الدخان، وقد فقد وعيه.

وقال له رجل الشرطة: «لماذا أشعلت النار في مهمات الجيش الأمريكي؟ سنخلي سبيلك إذا قلت الحقيقة، وإلاَّ فستلقى عقابك!».

ولم يكن «ثارو» يعرف أن بالخندق مهمات. . . فضلاً عن أنه لم يفلح في إشعال النار في نفسه!.

ووجد نفسه يصرخ فجأة: «اقتلوني!. . اقتلوني!. . .».

فصاح «سان جان»: «اسكت!». . . ثم نهض وغادر الغرفة

مسرعاً، كما لو كان قد تأكد أن «ثارو» قد أصيب بالجنون.

ولم يلبث أن دخل ضابط شاب، فنزع حزامه وألقاه على المنضدة والمسدس في جرابه، ثم استلقى وأغمض عينيه....

ونظر «ثارو» إلى المسدس طويلاً... وكان الشرطي الآخر لا يزال منهمكاً في الكتابة، على الكتب الملاصقة للجدار، مولياً ظهره نحوه.... فقال «ثارو» في نفسه: «هذه هي الفرصة!».

وفي حذر، اتجه نحو حزام الضابط النائم، وأخرج المسدس من جرابه وتحسس زر الأمان، ثم جذبه إلى الخلف، ونهض فجأة، وضغط الزناد فإذا بقطع من الجبس تتطاير من الجدار المقابل!.

وقفز الضابط النائم مرسلاً صرخة مدوية، واختبأ تحت المكتب، أما الشرطي الآخر، فقد ألقى بنفسه وراء المكتب، وأخرج مسدسه، وأطلق النار على الصبي الذي كان يمسك المسدس، والدخان يتصاعد من فوهته!

وتهالك «ثارو» نحو الجدار الذي كان خلفه، وأطلق زفرة طويلة، وقد تفجرت الدموع من عينيه...، ثم سقط على الأرض!.

* * * * * *



الجسر المعلــق

للكاتب المعاصـــر
توي آن هوانج دان

«كلهم في العدوان على الآمنين سواء»

«إذا كانت الكاتبة الإنجليزية «إيثيل منين» قد استطاعت أن تنقـل لنا صـورة رائعة لمـأساة فـرار أهل القـرى الفلسطينية الوادعة من إرهاب الصهيونيين ووحشيتهم في الأربعينـات من هذا القرن ـ فإن الكاتب الفيتنامي (ثوي آن هوانج دان) يرسم لنا ـ في القصة التي نقدمها على الصفحات التاليـة ـ صورة لا تقل روعة وإثارة للمشاعر الإنسانية، لفرار أهل القرى الفيتنامية الســالمــة، من وحشيــة الأمــريكييــن في الــستينــات مـن هذا القرن. . . . . ».

ـ كانت طلقات النيران قد اقتربت من جميع الجهـات. . . وفجـأة، اقترنت بهـا انفجارات عنيفـة تصم الآذان، لا يعلـم مصدرها إلا الله.

ولم يجد الذين لم يرحلوا بعد ـ من سكان قرية (نجين) ـ وقتاً للتفكير أو الجدال. . . فسرعان ما أصبح صخب فرارهم الجنوني يتردد في جميع الطرق المفضية إلى خارج القرية الصغيرة، والرعب والكرب يثقلان صراخهم: «لقد أصبحنا في قلب النار. . . . لقد زحفت إلينا الجبهة» واندفع بعض الذين سمعوا آخر الأنباء ـ عند مدخل القرية ـ يسعون إلى بيوتهم، ليحملوا منها كل ما تصل إليه أيديهم. وبقي بعض منهم في المؤخرة، ليساعدوا المسنين، ويحملوا الأطفال. . . . وكدَّست النساء فوق ظهورهن ما كانت تضمه بيوتهن الفقيرة من أمتعة. بينما حمل الرجال على أكتافهم أدوات الزراعة وآلاتها. . . وراح الجميع يتدافعون في عجلة ـ فراراً من القرية المهددة، دون أن تكون لدى واحد منهم فكرة محددة عن الوجهة التي يقصدها. . . فكانوا ينضمون ـ بلا وعي أو إرادة ـ لأكثف الجماعات الهاربة التي تصادفهم، دون أن يفسحوا لأنفسهم فرصة ليسألوا: من أي نواحي الجبهة ينبعث ضجيج المعركة؟. . . وإلى أية مسافة من القرية وصل المحاربون؟. . . . كان كل هم القرويين أن ينطلقوا في فرارهم مسرعين، لاهثين، حاملين أبناءهم وزادهم وأمتعتهم.

وبدا أن الطلقات كانت تنبعث من كل ناحية وفي وقت

واحد، تصحبها جلبة وسائل النقل، التي كانت تتناهى إلى أسماع القرويين، فكانوا يحسون بها ـ أكثر مما يسمعونها ـ إذ كانت تتزلزل الأرض تحت أقدامهم. . وفي تدافعهم واضطرابهم، كان بعضهم يسقط فوق البعض، وكان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم، والأمهات ينفصلن عن أولادهن. . . فتتصاعد النداءات لاهثة ملهوفة. . . وكلما قطعوا شوطاً، انضم إليهم فريق جديد، يضاعف ذعرهم بما يحمل من أنباء:

ـ لقد بلغوا الجسر. إنهم قادمون من طريق «دان أجزين». . لديهم مصفحات. . إنهم يطلقون النار على القرية. وتأكيداً لهذا الخبر الأخير، مرقت فوق رؤوس النازحين وهم مصطفون على ضفة النهر ـ دفعات من القنابل القاصفة، فانبطحوا جميعاً على الأرض. وأطلقت النسوة عاصفة من الصراخ والعويل:

ـ لقد أحاطوا بنا. . . لقد حوصرنا. . . يجب أن نعبر النهر، فهذه هي فرصتنا الوحيدة للنجاة.

ـ وفي حركة واحدة، اندفع المهاجرون نحو حا ة النهر، وقد تركوا مناجلهم وأدواتهم وما كان يضايقهم ـ ملة من حزم. . . والكهول منهم يئنون، والأطفال يبكون. ودوّت من إحدى النساء صرخة مُلتاعة، فارتفع صوت رجل يقول: «أغلقن أفواهكن أيتها النسوة. . . إنهم إذا سمعونا فسيقصفوننا

بالقنابل، فيمزقوننا إرباً إرباً». وإزاء هذا التحذير، كتم الكهول أناتهم، وأخذت الأمهات يُسكتن أبناءهن ويلصقن راحاتهن بأفواههم.

وعلى طريق الجسر، أخذت ضوضاء المصفحات تدنو، مختلطة بطلقات الرصاص، تعزف موسيقى الموت.... واستمر الضجيج الرهيب في الاقتراب والارتفاع.

ولكن الذين بلغوا ضفة النهر - أسفل طريق الجسر - لم يلبثوا أن هدأوا وكأنهم أيقنوا أنهم بلغوا - في النهاية - مأوى أميناً.... وعادوا يلتقطون أدواتهم وأمتعتهم التي كانوا قد ألقوها أرضاً. وأسرع الأقوياء من الرجال إلى قواربهم المستديرة - الشبيهة بالسلال - فشرعوا ينقلون الهاربين، ويجدفون بكل ما آتاهم الله من قوة.

وفي لحظة وجيزة، كانت القوارب قد غصت بالشيوخ والنسوة اللائي حملن أطفالهن على أكتافهن.... أما الشبان، فاندفعوا إلى الماء، يعبرون النهر سباحة. وأُفرد القارب الأخير للأمتعة التي لم يلتقطها أصحابها......

حين أصبحت القوارب في عرض النهر - وهي تتمايل باضطراب ينذر بالخطر - أخذ العابرون يرتجفون خوفاً، إذ فطنوا إلى أنهم أصبحوا في مساحة مكشوفة، مما يجعلهم هدفاً

سهلاً للقنابل. . . ولم يجرؤ أحد على الالتفات نحو القرية الصغيرة أو الشاطىء الذي وقف عنده من لم تتسع لهم القوارب، ينتظرون دورهم في العبور، وهم نهب للرعب خشية أن يصيبهم العدو، قبل أن تعود إليهم القوارب. . . . ولكن المجدفين راحوا يجدفون في استبسال مستميت، فعادت القوازب مرات. . وعندما تمت آخر رحلة عبر النهر، وتم نقل جميع الأمتعة إلى الضفة الأخرى، استرد الهاربون هدوءهم، وانبطحوا على الأرض، يرسلون أبصارهم نحو القرية التي هجروها إلى غير عودة.

* * * * * *

كانت سماء القرية تتوارى في سحب من دخان أسود تمزقه ـ من حين لآخر، السنة اللهب. وأخذت أعمدة الدخان والسنة اللهب تتمازج وتتلوى كالأفاعي المذعورة. . . وامتدت الحرائق من أحد أطراف القرية، حتى بلغت المباني الرئيسية فيها، ثم تشعبت فانتشرت في كافة الأنحاء، واجتاح الدخان كل شيء. . . . والرياح تحمل الرماد إلى ضفة النهر، ثم عبره إلى الضفة الأخرى لتصفع به وجوه الهاربين الذين التصقوا بالأرض في ألم وذهول، وقد سمَّرتهم إليها فجائية الأحداث والدمار.

ومسح أحد الرجال وجهه الذي كساه الرماد، ثم أخذ يصرخ، وهو يحدق في يده:

«انظروا. . . . . ثمار كل تلك السنين من الجهد والعناء، تتلاشى في الدخان. . . . أهذا مصير العمل الدائب والحرمان؟ يا إلهي»!!

وسمع كل امرىء هذه الحسرة، فكأنما كانت إشارة بدء، إذ أخذت الدموع تسيل من العيون. . . وأفلتت من الرجال زفرات أسى.

ولكن أحد المبرزين في القرية، صاح بصوت قوي: «إن المصيبة مصيبة الوطن بأسره، فلا تعتقدوا أن منازلكم وقريتكم وحدها هي التي أصابتها النيران».

وبينما هو يتكلم، صرخ أحد الموجودين: «انظروا. هناك رجل على الشاطىء. . . . ومعه ثور».

واتجهت الأبصار جميعاً إلى الضفة المقابلة. . . كان هناك رجل حقاً، لاح خلال الدخان، وهو يقود ثوراً، ويسير في خط متعرج، وكأنه كان يحاول تفادي الضربات التي كان يوجهها إليه خصم متوار عن الأنظار.

وعرف القرويون الرجل. . كان «ترونج به» وثوره. . .

وراحوا ينادونه، ويحيطون أفـواههم براحـاتهم، حتى تتضخم أصـواتهم وتبلغ الشاطىء الآخـر للنهـر. ولكن. . . أكـان من الممكن أن يسمع نداءاتهم وسط ضجيج القنابل والمفرقعـات والمصفحات وطقطقة الأخشاب وأعواد الغاب المشتعلة؟.

ولوّح «ترونج به» بيده. ثم شد الحبل ليقود الثور إلى منحدر يفضي إلى حافة النهر. ولكنه ما لبث أن غيَّر اتجـاهه فجـأة، ولاح أنه أراد أن يحتمي خلف جسم الحيوان، وفجـأة، أنزل يـديه وألصقهمـا ببطنـه، بينما انتفض الثـور جـامحـاً، وأفلت وانـطلق مترنحـاً، وكأنـه أصيب هو الآخـر. . . . وأيقظ هـذا المشهـد الذعـر بين القرويين من جـديد، وأيقنـوا أن الخـطر يلاحقهم. فانـطلقوا يجـرون على غير هـدى، مندفعين نحـو مزارع الأرز التي جفت لطول ما هجرها أصحابها.

* * * * *

من خلال أحراش الغـاب، تراءت ـ أخيـراً ـ منازل سمـراء وحمراء . . . . تلك كانت طلائع منـازل قريـة «نكون»، وقـد بدت ـ بمتانة بنيانها ـ بمثابة ميناء أو مرفأ يلوذون به من الموت الذي كان يلاحقهم من ضفة النهر الأخرى.

وأخذوا يركضون إلى «نكون» بأقصى ما وسعهم من سرعة، وقـد تقطعت أنفـاسهم، وانصب عرقهم انصبـاباً. . . . وكـان القادرون يأخذون بأيدي المسنين، ويجرُّون وراءهم الأطفال.

ولكنهم، وبعد أن عبروا نحو اثنتي عشرة مزرعة ـ فوجئوا بجماعة أخرى من الهاربين تبرز من دغل إلى يمينهم . . . . .

وخيل إليهم أنهم ينظرون إلى صورتهم في مرآة: كان الآخرون مثلهم، جمهرة من الناس مثقلين بالأدوات والحزم، يفرون مسرعين والموت في أعقابهم . . . فمن الجانب الآخر للدغل، كان ثمة خط من النيران، تنطلق من ورائه القنابل كثيفة مركزة. وصاح شخص ما: «إنها عملية تطويق، فهم على جانبي النهر . . كيف السبيل إلى النجاة؟» .

لقد أدرك الهاربون أنهم وقعوا بين نارين، بعد أن ظنوا أنهم قد بلغوا ملجأ أميناً، في قرية منعزلة عن المعركة .

ـ كيف السبيل إلى النجاة؟

وجمدوا في أماكنهم، لا يدرون إلى أين يذهبون . . . .
وأخذت حلقة النيران تضيق من حولهم في كل لحظة . . .
وازداد ارتفاع قصف المدافع، وهي تقترب من ناحية «نكون» .

وانبعثت من الفريق الآخر ـ من الفارين ـ صيحات التحذير:

ـ اتبعونا، فنحن على دراية بكل الطرق . . إننا نيمم شطر (يين دا)، لنختبىء في الجبال .

وعادوا إلى الجري، يحاولون اللحاق بالجماعة الثانية .

أخـذت حـدة الشمس تخف فـوق مـزارع الأرز، وهـدأت حـرارة الهواء. . ولم يجـرؤ أحد من القـرويين على التوقف، بالرغم مما أصابهم من إرهاق. بل إن أحداً لم يعد يحفل بأنين الشيـوخ. وعويـل النسوة والأطفـال. . . واستمـر الجميـع في هـرولتهم خلال السهـل المقفر، المتـرامي. . . . وزاد الطين بلة، أن أخذت السحب المنخفضة تتكاثف ثم تساقط المـطر مصحوباً ببرد قارس. . ولكن، ماذا يهم المطر والبرد؟ . . . . . لم يكن القوم يفكرون إلا فيما بقي من مسافة بينهم وبين الملاذ الأمين. ولما كان القادمون من «نجين» يجهلون موقع «يين دا» فقد كانوا يسألون العارفين، فيجيبونهم:

ـ لا تزال المسافة بعيدة. . . هناك جسر معلق في الفضاء، فوق مجرى مائي . عندما تجتازونه ، تكونـون قد وصلتم إلى مقاطعة « يـين دا » .

وما لبث الجسر الصغير أن لاح ـ خلال ستار المطر وضباب المساء ـ وكأنه يطفو في الهواء، وعوارضه الرقيقة، المصنـوعة من الغاب، تتأرجح وسط الرياح بشدة تنذر بالخطر. . والليل يهبط مسرعاً، والسماء محجوبة بسحب سوداء كثيفة، ينعكس عليهـا وهج النيـران. . فكـأنمـا السمـاء حلق وحشٍ خـرافي مرعب، ينبعث منه دخان ولهب.

وازدادت معالم الجسر وضـوحاً، فـابتسم بعض الهاربين،

وقد أخذت الطمأنينة تخالجهم. كان قصف القنابل لا يزال مركزاً، وانفجاراتها بعد قريبة، ولكنهم شعروا بأنهم تجاوزوا نطاق الخطر... وراح بعض المسنين يلهجون بالدعوات، وعيونهم معلقة بالجسر المتاخم للحدود.

على أن الحيرة عاودت القوم، عندما بلغوا الجسر المعلق.. لم يكن مجرى الماء واسعاً، ولكنه كان بالغ العمق.... وكان التيار سريعاً وقوياً، والمسافة بين أسفل الجسر وسطح الماء لا تجاوز الشبر. ولم يثر بنيان الجسر عجب أحد. كان مكوناً من سيقان من الغاب طويلة - بعرض المجرى مربوطة من الطرفين، ومُرْتكزة فوق مجموعات أخرى من الغاب، كل وحدة تتألف من ساقين على شكل صليب، غرست في المياه لتكون دعامات... وكان ثمة سياج من الغاب المضغوط على جانبي الجسر، ليتكيء عليه العابرون. وفي غمرة القلق، انبعثت نصائح الهاربين وتساؤلاتهم:

- الآن...... لم يبق إلا أن نجتاز الجسر؟

- نعم. هذا أمر يسير على الشبان.... ولكن... النساء والشيوخ والأطفال؟.... وكيف تنقل الأمتعة فوق الجسر؟

وسأل أعيان قرية (نجين) زملاءهم من قرية (نكون):

- أما من طريق آخر لعبور النهر؟... ليس بوسعنا أن نظل

هنا جميعاً، في انتظار أن يعبر القوم النهر واحداً واحداً، فوق هذا الجسر الضعيف.

وفجأة، وقع انفجار رهيب وراء القوم، على مسافة مائة متر تقريباً، فقطع الحوار. ونثر الوحل على رؤوس الهاربين. وتوالت الانفجارات. . . ولعل المدافع كانت تطلق قنابلها جزافاً من الشاطىء الآخر، ولكن الهاربين ظنوا أن العدو يصوب قذائفه عليهم، فاستبد بهم الذعر، وعلا صراخهم، وغاص بعضهم في الماء يحاولون اجتياز المجرى سباحة، وتدافع بعض آخر نحو الجسر، فأخذ يهتز بعنف تحت ثقلهم. .

وبقيت قلة ضئيلة احتفظ أفرادها برباطة جأشهم، وراحوا يحاولون إقرار قسط من النظام، ويرفعون أصواتهم وسط الصخب والضجيج: «اعبروا الجسر فرادى. . واحداً واحداً، ولا تثقلوه، وإلا غرقتم جميعاً».

هذه التحذيرات كانت ستذهب دون تأثير، لو أن دفعة أخرى من القنابل تبعت الأولى. . . ولكن القنابل انقطعت. . . غير أن الجسر كان مبعث خطر لا يقل عن خطر المقذوفات، إذ أخذ يهتز بشدة تحت الخطوات الملهوفة، وكأنه وشيك الانهيار. . . وما كان انهياره في المياه السريعة الجريان ـ ليثير دهشة أو عجباً إزاء التزاحم المضطرب.

ـ وبعد أن عبر الجسر عدد من الأفراد، تقدمت إليـه عجوز حملت على كتفها عصا طويلة من الخشب، علقت في طرفيها سلتين. وكان الليل قد لف المكان، فلم ير الرجل ـ الذي كان خلف العجوز ـ شيئاً من محتويات السلتين.

وقال للمرأة:

ـ ارمي هــذا في النهـر!.. ستكــونين سعيـدة الحظ لــو استطعت العبور وحدك دون أن تثقلي الجسر بالسلتين.

وتشبثت المرأة بالسلتين في إصرار، وقد رابها قول الـرجل الـذي لم تكن تعرفـه. وكأنمـا أثـاره إصـرارهـا فهـز السلتين بخشونة، وإذا بصراخ طفل ينبعث من إحداهما فصاح: «ماذا تحملين فيهما؟».

ورأى المحيطون بهما طفلاً ـ في حوالي الثالثة أو الرابعة من عمـره ـ منكمشـاً في إحـدى السلتين... بينمـا استغـرق في النوم ـ في السلة الثانية ـ وليد صغيـر.

ـ يـا الله.. كيف تريـدين عبور الجسـر بهـذين الـولـدين؟ وأجابته السيـدة في جفاء: «سـأفعل.. لقـد عبرت ـ من قبـل جسوراً ـ أسوأ حالاً، بأحمال أثقل». وأخذ القوم يرقبون المرأة ـ بانفعال بالغ ـ وهي تتقدم ببطء فوق أعواد الغاب تحت ستار المطر الدقيق، الـذي تخلله ضوء القمـر الشاحب... كـانت

محـاولتها ضـربـاً من المجـازفـة. . وقـال بعض الحـاضـرين لأنفسهم، وهم يقـدِّرون الاحتمالات، «إن نجـاحها في بلوغ الشـاطىء الآخـر بسـلام ـ إذا استـطاعت ـ فـأل حسن يبشـر المهاجرين بأنهم سيبلغون «بين دا»، دون خطر.

ولكن القنابل عادت تستأنف انهمـارها فجـأة، وقد ازدادت قرباً. . . وقبل أن يجد أحـد فرصـة للانبـطاح على الأرض، انفجرت قنبلة كبيرة وسط الجموع المتزاحمـة أمام الجسـر. . وفي غمرة الاضطراب الجنوني، أخذ الكثيرون يلقون بأنفسهم في مجـرى المـاء. . . بينمـا تـدافعت أعـداد كبيـرة إلى الجسر. . . . .

والتفتت السيدة ـ وقد بلغت منتصف الجسر ـ خلفها، وقد شل الذعر حراكها. . وتشبثت مستميتة بسياج الجسر الذي راح يتـأرجح في عنف بسبب تـدافع القـادمين. . . وفجأة، مـالت إحدى السلتين بانحراف شديد، فاختل توازن العصا على كتف السيدة، وسقطت مع السلتين في الماء.

وضاع صراخ الأم في غمرة صخب الناس، ودوي القنابل.



قصة من الكونغو:

خطة محكمة ولكن. . .

للكاتب البلجيكي: « فيردان »

خطة محكمة، ولكن. . .

كـان قويـاً، متين البنيـة، بـالـرغم من أنـه لم يكن صغيـر السن. . . ولقد عاش، وناضل، واحتمل كثيراً من الحـرمان، في العمل في مناجم أفريقيا. . . وعندما آن لـه أن ينعم بثمار جهوده ـ الطيبة منها والشريرة على السواء ـ ظهر شاب يهدد أمنه ومستقبله، ويسعى لحرمانه ـ في الوقت ذاته ـ من زوجته الشابة الحسناء فماذا يفعل. . . ؟

هـذا ما تكشفـه لك القصـة التي نقدمهـا على الصفحـات التالية. . . قصة تصور أبدع تصوير خفايا النفس البشرية، كما تصوّر ـ أوضح تصوير ـ ما كان يفعله الأجـانب في القارة التي كانوا يسمونها: القارة السوداء.

* لم يكن ثمة غير شعاع واحد من الضوء، ينبعث من إحدى النوافذ، في كتلة الظلام التي لفت مكاتب « شركة معادن كيماش المساهمة ». . . وكان صرير الحصى ـ المنتشر في الممر ـ تحت وقع أقدام « آنسون » يعكر صفو اللحن الذي كان يصدر عن « الجوقة » الليلية للصراصير البرية.

كانت الساعة تناهز الثامنة مساء. . . ولم يثر دهشة آنسون « ما بدا له من نشاط « سامي » أمين المخزن ـ وهو شاب خلاسي تختلط في عروقه الدماء البيضاء والزنجية. ويبدو أن شعوره بالقدر الضئيل من الدماء البيضاء ـ التي كانت تجري في عروقه ـ غرس في ذهنه الرغبة في أن يكون ممتازاً ومتميزاً عن سائر المستخدمين الملونين، الذين كانت بلادتهم الواضحة تسود مكاتب «شركة معادن كيماش المساهمة».

وتذكّر « آنسون » كما يفعل الكثيرون حين يسترجعون ذكريات شبابهم من قبيل اللهو والتسلية ـ أنه ظل فترة طويلة يعتقد أنه والد « سامي ». . أما الآن، فقد كف عن هذا الاعتقاد، كلا. . لم يكن هو والده. . فلقد كانت معرفته بالنساء الوطنيات كافية لأن تصرفه عن هذا الوهم.

* * *

* ودفع « آنسون » الباب الزجاجي ـ الذي كان يعكس على

الممر ضوءاً خافتاً ـ فنهض « سامي » واقفاً. . كان على الدوام يبدو موزعاً بين الولاء المفرط، وبين صلف الزنوج. . وكان آنسون « يتساءل أحياناً عما إذا كان هذا الصّلف الذي لا يكاد يبدو ـ يستمد جذوره من ذلك الاعتقاد بأبوّته الموهومة. . ثم تمتم لنفسه: « ليكن. . إذا كان هذا الاعتقاد يسره، فليتشبث به، ولكن. . على أن يحتفظ به لنفسه ».

وبانحناءة تذلل أخيرة، أعاد « سامي » إغلاق الباب خلفه. . ودلف « آنسون » إلى مكتبه، دون أن يوقد المصباح. كان ضوء القمر يضفي من النور ما يكفي لإنجاز ما كان يعتزم أن يفعل. . وكان التعب قد أضناه، فجلس متثاقلاً في المقعد الوثير، بعيداً عن بساط النور الفيروزي الذي كان القمر ينشره تحت النافذة الوحيدة. . . وأغمض عينيه غافلاً عن سحر الليل الأفريقي. . « رحماك يا رب لكم هو مرهق. . ثلاثون عاماً في أفريقيا لا تتخللها إلاّ بضعة شهور ـ ألتقِطها من وقت لآخر ـ لقضاء أجازة سريعة في أوروبا. ولا يزال هناك احتمال قضاء عشرة أعوام أخرى، في هذه الأصقاع ».

وتضاحك في مرارة، وهو يقول لنفسه: « إنك لتوهم نفسك يا آنسون ». لم يعد ثمة عشرة أعوام. . لم يعد ثمة عام واحد، ولا حتى ستة أشهر. . «إنهم » سيطيحون بك قبل ذلك. . سيشمون رائحة السر قبل ذلك. . « إنه » سيشم رائحة السر،

بـأنفـه الصغيـر القـذر، أنف الـدخيـل، الـوصـولي. . «إبن الذوات». . ثم ماذا؟ . . بتقرير سريع، بل بغير تقرير. . تكفي بضع كلمات، وبضع أرقام، في خـطابه القـادم إلى «بابا» وبعد ذلك، ينفسح الطريق أمامه ليحتل مقعدك الوثير».

وراح «آنسون» يستعرض حياته الوظيفية. . .

سنوات التنقيب عن المعادن. . والتقـدم البطىء المنهـك داخـل الأدغال. . لحـظات الأمل العـابـرة. . . الاكتشـافـات التافهة بعـد شهور، بـل بعد سنـوات من العمل المضني بـلا جدوى. . . والملاريا. . . واليأس.

* * *

* كان آنسون قد جاء إلى «الكونغو» بعد وفاة أمه، ليلحق بأبيه الذي كان يعمل في التنقيب عن المعادن في أفريقيا. ثم تـوفي الأب، فواصـل هـو التنقيب لحسـابـه الخـاص، ولكن سنوات الأزمة الطاحنة هي التي قضت على استقلاله. . وقـد شعـر بسعادة عـظيمـة حين وجـد عمـلاً في «شـركـة معـادن كيماش» التي أنشأهـا ـ في ذلك الـوقت بعض المتفائلين من رجال المال. . . وكان هو «آنسـون» الذي حقق للشـركة مـا بلغته من نجاح، فهل يكون هذا هو جزاؤه؟ . . . كانوا قد عينوه مديراً بطبيعة الحال، ولم يكن مرتبه ضئيلاً، ولكنه مع ذلك لم

يكن يوازي ما يستحق . « إن سياسة الشركة تستهدف الاقتصاد ، يا سيد آنسون » هكذا اعتاد أن يقول والد هذا الفتى أورين سميث » . . . هذا الأبله الذي . . .

لم يكن من المستغرب ـ بعد ذلك أن يحاول « آنسون » ان يقتطع لنفسه جزءاً من كل هذا الذهب الذي كان يملأ به أيدي أعضاء مجلس الادارة . . ولم يكن هذا بالأمر العسير ، فقد كانوا جميعاً يولونه ثقتهم ، ولا يفتأون يقولون عنه « السيد آنسون النزيه» ثم إن هذه البقعة ـ التي كانت مقراً لعمله ـ كانت تخلو من كل ما يمكن أن يجتذب مفتشي الحسابات ومن على شاكلتهم من الخبراء . كان بوسعه ـ منذ الآن ـ ان يستغني عن تلك المكافأة الضئيلة التي كان يمنحها « أورين سميث » في شح وتقتير ـ لمن يسمونهم بالمندوبين الساميين للشركة . وقد كان هو الذي يقوم ـ في نهاية كل أربعة أشهر ـ بالإشراف على نقل شحنة الذهب المستخرج ، إلى محطة السكة الحديدية التي تؤدي إلى ميناء (سيموس) وكان يحرص على أن ينتخب للحراسة أشهر المشاغبين من الجنود الوطنين وكان في كل شحنة ، ودائماً ، صندوق كتبت عليه كلمة «آلات» ، يرسل إلى عنوان معين في «سيموس » حيث يودع بصفة أمانة . ولما كان « آنسون » يتولى بنفسه تحرير الوثائق ، فقد كان يستطيع ـ بغير ما مشقة ـ أن يجعل كل شيء يبدو صحيحاً . . فلم يكن يعوز

إلا عملية تزييف بسيطة في احصائيات الانتاج وفي أرقام الحسابات، ليكون في مأمن من كل خطر. . بشرط ألا يعقب ذلك عملية مراجعة جادة.

ولكن. . ها هم أولاء يرسلون إليه « أورين سميث ـ الابن » ليقوم باطلاع على سير العمل في المشروعات التي كان مقرراً أن يتولى إدارتها فيما بعد. . ومما زاد الطين بلة، أن هذا الابن كان يقوم بعمله بطريقة جادة.

* انطلقت من بين شفتي « آنسون » بضع شتائم بصوت خافت. . لقد نجح حتى اليوم في إقصاء « أورين سميث » عن الجانب الاداري من العمل، ولكن كان لا بد لذلك من نهاية. . « وهم » قد ألمحوا له صباح اليوم ـ في أدب ولكن في حزم ـ بأن السيد « أورين سميث ـ الابن » يهتم فعلاً بالجانب الفني للعمل، ولكن استعداداته وميوله الشخصية تجعله أكثر اتجاهاً إلى الاهتمام بالجانب الإداري. . ومن ثم فإنه اعتزم ـ فور انتهاء العطلة الأسبوعية ـ القيام بفحص دقيق للحسابات والأعمال الادارية بصفة عامة.

كان « آنسون » يعلم أن هذا لا بد أن يحدث في يوم من الأيام. . ولكنه لم يكن يتوقع أن يحدث، قبل أن يقرر هو ذلك. . لم يكن يتوقع أن يحدث، قبل أن يتمكن من أن يجعل

بضعــة آلآف من الكيلو متــرات بينــه وبيــن العــدالــة فــي المستعمـرة. . وبعـد أن يتم ذلـك، وبعـد أن يجمـع أمـوالـه وينقلها، سيقولها عالية: « الوداع »...

ولقد كانت قوانين تسليم المجرمين غيـر معروفـة كثيراً في أميركا اللاتينية فيما يقال. . فضلاً عن أنه بوسع أي امرىء أن يستبدل باسمه اسماً جديداً، ما دام في يده مال. وها هي ذي الخطة الرائعة تبؤ بالفشل...

لقد أخذوه على غـرة، قبل الأوان. . قبـل الأوان بكثير. . وحتى لو حاول أن يهرب الآن فلن يجد تحت يده من المال ما يكفي ليتيح له النجـاة بنفسه. . وأخـذ يلعن الحيطة الحمقـاء التي دفعته إلى أن يضع كل أمواله في الخارج. . وربما كان في وسعه أن يتصرَّف، لو أنه كـان بمفرده، ولكن. . كـانت هناك « واندا ». كان قد تذكر فجأة - أثناء إجازتـه الأخيرة - أنـه بلغ الخامسة والأربعين من العمر، ففكر في الزواج، حين رآها. . حين رأى « واندا » وكانت خبرته بـالنساء ولا سيمـا الأوربيات منهن - ضئيلة، فبـدت له الفتـاة أنسب أنثى له. . صحيـح أن عمرها كان - عندئـذ - يقل عن عمـره عشرين عـاماً، ولكن لا حرج. . فقد كان قوي البنية بالنسبة لسنه، وما كان يمكن لأحد أن يقدر عمره بأكثر من أربعين عاماً. . لقد غازلها، ثم تزوجها قبل عودته إلى أفريقيا بخمسة عشر يوماً. . . وسرعان ما توالت

الأيام والشهور، فإذا ثلاثة أعوام تنقضي منذ ذلك الحين.

وما كان يدري - حين تزوج « واندا » إن كان يحبها حقيقة. ولكنه أصبح لا يتصور الحياة بدونها. . وأصابته غصة في حلقه. . إنه لا يستطيع أبداً أن يفقدها، مهما يكن الثمن. . لا، لا ينبغي أن يفقدها أبداً.

* * *

وخالجه شعور جديد، لم يكن قد اتضح له في هذه اللحظة. . إنها لم يتح لها أن تعاشر طوال هذه السنوات إلّا موظفي الشركة، وكان أغلبهم - على أي حال - قرويين لم يكادوا يتعدون مرحلة الطفولة، أو شيوخاً محطمين. .

لذلك فان وصول هذا الشاب أيقظ في نفسه - لأول مرة - الشعور بالغيرة. . ولقد حاول « أورين سميث » منذ أول وهلة - أن يغازل « وآندا » وكانت هي - في بادىء الأمر تصده، ولكنها لم تلبث بعد ذلك أن تخاذلت، وان كانت لم ترفع الكلفة بينها وبينه.

ولم ترق لآنسون هذه اللعبة كثيراً، بل إنها أثارت حفيظته ضد ذلك الدخيل.

بعد هذا كله، وعند النقطة التي وصل إليها ما الذي يدعوه إلى أن يتراجع؟ لا بد له من أن يمضي في تنفيذ خطته، وأن

يفعل ذلك بمهارة، وأن يتجنب ـ وبأي ثمن ـ إثارة شك «سميث». . إن أمامه الليل بطوله ليعد ضربته كما أن أمامه نهار الأحد كذلك. . لا بد أن يضع كل شيء في موضعه الصحيح، حتى لا يرتكب أية حماقة. . . فإن أقل خطأ قد يودي إلى الهلاك.

ومهما يكن، فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث ـ بعد احتراق السجلات. . في غير تعمد ظاهر ـ هو أن توجه إليه تهمة الإهمال، وأن يحال إلى المعاش قبل الأوان. . فهو لن يترك أي دليل ضدّه. . . أما الشكوك. . . يا إلهي إنها لا يمكن أن تحوم أبداً حوله.

* * *

* وما أن اتخذ قراره، حتى بدأ يفكر في خطته بطريقة جادة. . لا داعي للعجلة، فهو لن يفعل شيئاً هذا المساء، ومن ثم فأمامه فترة ما بعد ظهيرة اليوم التالي كلها .

لا ، ليس هذا المساء. . عليه أن يتجنب إثارة الشك في نفس « أورين سميث » بقيامه بنشاط غير عادي .

إن مباراة في « الجولف » مع العدو ـ قبل المعركة ـ لشيء رائع. . شيء مريح للأعصاب. . ولقد أعاد هذا إلى ذهنه أول خطة وضعها لانقاذ موقفه. كانت خطة خطيرة جداً. . فضلاً عن أنها تتضمن. . حياة بشرية.

ذلك أن رؤوس الجبال ـ التي تطل على وديان « كاربوبـو » الضيقة ـ تعلو الشـلال بعشرين متراً، ومن بينها رأس صخري، يبدو كأنما أعد خصيصاً ليكون مكاناً لـلاستطلاع . . وهنـاك، يمكنه التظاهر بالإعياء، أو التعب المفاجىء، فيتهالك قـائلاً: « في مثل سني يا سيد سميث، وبعد ثلاثين عاماً في أفريقيا، هـل لي أن أسألـك بضـع دقـائق للراحـة أمـام هـذا المنـظر الرائع؟ . . . شكراً، شكراً جزيلاً . . هل تسمح لي؟ ».

وتمـر لحظة . . وقـد يـظلان يلهثـان قليـلاً . . ولا يلبث أن يقول: « هل لك في شراب مرطب لا ضرر منه؟ . . . زجاجـة كوكا كولا؟ . . عظيم . . يا غلام، اذهب واحضر لنا من النادي زجاجتين من الكوكا كولا » .

والآن، رحل الشاهد الوحيـد لبضع دقـائق، فالنـادي على مسافة تتجاوز خمسمائة متر خلف نتوء في الجبل . . . ثم، دفعة بسيطة . . يا للسماء! يا للشاب المسكين لا أمل في النجاة، فإن الهـوة سحيقة، يصـل عمقها إلى عشـرين متراً، وفي أسفلهـا الصخور، والماء ـ والشاب لا يجيد السباحة . . . يا للمسكين يا للشاب المسكين! . . كم كان لطيفاً .

ولكن، كـلا، يا للشيـطان! . . هذه مجـازفة تنـطوي على أخطار أكثر مما يجب. إن الخطة محكمة بالتـأكيد، وتخلو من أيـة

ثغرة، ولكن. . ما الذي يجري بعد ذلك؟. . سيأتي « أورين سميث» ـ الأب مسرعاً. . . وبعد لحظات من الراحة يقضيها في التعبير عن الألم الأبوي الشريف اللائق، لا يلبث أن يقول: (يا سيد آنسون إن العمل هو أنجح دواء للهم. . هو وحده السبيل إلى النسيان. . فلننظر كيف سارت أعمالنا هذا العام؟ انني أفضل أن أحبس نفسي معك بضعة أيام، حتى أكون لنفسي فكرة عن نتائج السنة المالية الجارية. . هيا، هات لي دفاترك لو سمحت. . لا تنس دفتر السنوات الماضية، حتى تتسنى لي وسيلة للمقارنة . يا للعجوز الخبيث الرهيب ! .

وارتعد « آنسون ». . كلا! . . لن يكون القتل مهرباً. . يكفي حريق بسيط. . نار نشعلها علامة على الفرح، كما يفعل فتيان الكشافة. . لا ضير في هذا، وسيكون البرد القارس تفسيراً كافياً للمدفأة التي تركها «السيد آنسون الطيب» موقدة، عندما غادر الشركة. . كان المسكين مرهقاً، فقد قضى ساعات الليل ساهراً في جمع كل الوثائق التي طلبها السيد « أورين سميث » وهذا القط الغبي، الذي اجتذبه الدفء، ولا توجد غير اشلائه المحترقة، هو بلا شك الذي قلب المدفأة فوق البساط. . وستكون التعليقات مترفقة رحيمة، « حقاً إن ذلك لمن سوء الحظ، ولكن لا توجد خسائر في الأرواح، هذا هو المهم ونتعشم ألا يوجِّه إلى « آنسون » المسكين أي لوم

جارح، فهو سيبلغ سن الاحالة إلى المعاش قريباً. . وبالمناسبة، من الذي سيخلفه في ظنكم؟.

تنحنح «آنسون» تعبيراً عن الرضى. . ولكن، كلا بالتأكيد. . . ليس هذا المساء، فهو مرهق جداً. . بيد أن سهرة الغد كفيلة على أية حال ـ بأن تتيح له وقتاً كافياً لتدبير الأمر. . . ثم إن المستخدمين من أبناء البلاد يكونون ـ مساء الأحد ـ منهكين، إثر احتسائهم الخمر طوال يومين متوالين وهذا مما يمنع مغفلاً مثل «سامي» من أن يأتي إلى مكاتب الشركة، فيتنبّه إلى الخطر وينذر به قبل الأوان.

وتطلع إلى الساعة المضيئة، التي كانت تحيط معصمه: لم تكن قد تعدت التاسعة والنصف. . . وبدأ له الوقت طويلاً جداً. . . بقيت أربع وعشرين ساعة. واستوثق ـ قبل انصرافه ـ من أن المدفأة الكهربائية كانت تؤدي عملها بشكل طبيعي. . إن كل شيء سيسير على ما يرام. . . كان متأكداً من ذلك.

وفي الخارج، لسعته برودة الليل، فأسرع الخطى. . . ستندهش «واندا» إذ تراه يعود مبكراً هكذا، إذ كان قد أخبرها بألا تنتظره، لأنه لن يعود قبل منتصف الليل. . واقترب من البيت، فأدهشه أن رأى الظلام والسكون يسودان كل شيء. . وتسلل عبر الممر المفضي إلى المدخل الرئيسي، فاصطدم

بسيارة كان نصفها يختفي بين دغلين، فلا سبيل إلى رؤيتها من الخارج. . كانت سيارة « أورين سميث ». . ماذا في الأمر بحق الشيطان؟.

ومكث فترة طويلة جامداً، لا يتحرك، وقد بدا له أن عقله تعطل تماماً فعجز عن التفكير. . . حتى أخرجته من غيبوبته حركة خفيفة، صدرت عن الباب وهو ينفرج قليلاً، فتراجع متسللاً إلى جوف مجموعة من شجيرات الزهور.

وفي ضوء القمر؛ رأى « واندا »و « أورين سميث » يخرجان من المنزل صامتين ويتجهان صوب السيارة. . وغابا عن ناظره لحظة، ثم لم يلبث صوتهما أن تناهى إليه فجأة، في وضوح تام:

ـ انصرف الأن. . إنني خائفة. . لو رجع.

ـ لا خطر على الاطلاق، هيا بنا. . . ألم يخبرك بأنه لن يعود قبل منتصف الليل؟

ـ لا يا حبيبي، انصرف. . . في مساء الغد، نستطيع أن نفعل ما يروق لنا، دون ما خطر. . . اذهب أرجوك. لم يعد علينا أن ننتظر لأكثر من أربع وعشرين ساعة، ثم يلتئم شملنا إلى الأبد. . لا ينبغي أن نخاطر. . سيكون الأمر رهيباً، لو خالجه أي شك.

وهنا ساد صمت طويل. . لا بد أنهما كانا يتعانقان. . وقاوم « آنسـون » رغبة مفاجئة في أن يندفع نحوهما. . ومرة أخرى، سمع صوت زوجتـه وهي تقول « اذهب الآن يـا حبيبي. » ثم سمح محرك السيارة يدور، وسرعان ما انطلقت السيارة بعيداً، حتى لم يعد يبدو منها سوى بصيص من النور الأحمر في حلكة الظلام.

*

* الله وحده يعلم كم من الوقت مكث « آنسون » في ذلك المكان، منكمشاً في جوف الدغل.

وراح يحدث نفسه، وهو مذهول: .

« واندا حبيبتي؟. . غير معقول، لا بد أنني أحلم. . لا بد أنـني أحـلم ، ولن ألـبث أن أسـتيـقظ . . أنـت مـرهـق يـا آنسون. . . إنها الملاريا، إنه كابوس الحمى. إنني أكرهك يا « واندا ». . . أكرهك؟. . . كلا لا أستطيع. . . بل أكرهه هو، هو. . الوغد الصغير القـذر. . . ماذا كـانت تعني بقولهـا بعد أربع وعشرين سـاعة؟ لم يعـد أمامنـا أن ننتظر أكثـر من أربع وعشرين ساعة؟. . أتراها سترحل معه؟ تهجرني من أجل هذا الولد؟ هذا الوغد الطائش؟ أولى بها أن تُقتل. . . ولكن كلا، بل هو الذي يُقتل ».

وارتدت إلى ذهن « آنسون » الخطة التي كان قد دبرهـا . . خطة بسيطة، هي النموذج الرائع للجريمة الكاملة؟ . . جريمة بدون دافع، وبدون فاعل وبدون شاهد . . دفعة بسيطة، بحركة ودية تقريباً . . بالابهام لا أكثر . . وهمس لنفسه: « وبعد ذلك، لا أهمية للمخاطر؟ . . فلأفقد كل شيء، ولا أفقد واندا » وفجـأة ارتعدت فـرائصه . . . كـان البـرد قـد أصـابـه دون أن يـدري . . وكان النـور الذي أضيء في إحـدى الحجرات قـد أطفيء، وسيطر النعاس على مظهر المنزل . . وتسلل « آنسون كاللص خلال باب الجراج »، كي يتجنب السير فوق الحصى لم يكن يريد أن يرى « واندا » هذا المساء، فهو لن يستطيع أن يتحملها . . .

* واستيقظ عنـد الفجر، بعـد أن قضي ليلته مستلقيـاً على أحد المقاعد، وكابوس مروع يقلق نومه . . . وكـانت الساعـة السـادسة صبـاحاً . وبكـل ما استـطاع من هـدوء، تسلل إلى الحمام . . . وجرح نفسه مرتين وهـو يحلق ذقنه. ولكنـه كظم حنقـه . . . « إياك يـا آنسون واضـطراب الأعصـاب! . . إنـك ستحتاج إلى كل ما لديك من رباطـة جأش » . . وأفـاده حمام فاتر، وأكمل انتعاشه قدح من القهوة . . وكانت معدته خاوية، ولكنه لم يستطع أن يأكل شيئاً، وإنما مزج قهوته بكأس كبيـرة من الحليب مما أشاع فيـه حيويـة ودفئاً . . وشعـر بأنـه أصبح

مستعداً للعمل. وبينما هو يهم بالخروج، سمع صوت سيارة تتوقف أمام المنزل، فوقف قلبه ولكنه أحس بروحه ترتد إليه، حين سمع صوت « أورين سميث » يناديه . . لقد كانت السماء تساعده بالتأكيد، فها هو ذا الغبي قد جاء إلى الفخ بقدميه .

ـ هاللو يا سيد آنسون . . لقد فكرت في مباراة صباحية في الجولف . . .

ـ ان الطقس بديع، كعهده دائماً في هذا الفصل من العام . . نعم بكل سرور . . طبعاً بكل سرور.

وتظاهر بالحرج وهو يحضر قبعته وصديريته الصوفية، ويتمتم معتذراً: « سيكون من العسير أن نعثر ـ في هذه الساعة ـ على صبي لجمع الكرات . . سأستدعي ابن خادمي . . . ولنضع مضاربنا في حقيبة واحدة. ».

ووافق « أورين سميث »، وهو شارد الفكر . . .

كان كل شيء يبدو على ما يرام . . . وكانت حلقات اللعب خالية من الرواد ولم تستطيع الدقائق الأولى من التمرين أن تكسب « آنسون » لياقته البدنية فكان يخطىء المرة بعد الأخرى، حتى اضطر أن يتخلى عن الحفرات الثلاث الأولى في الملعب لمنافسه الشاب، وهو يعتذر قائلاً: « أشعر بأنني لست في كامل لياقتي هذا الصباح . . . ».

وكانا يتجهان معاً ناحية الحفرة الرابعة، عند قمة الجبل التي تعلو الشلال . . فأجاب أورين سميث: « وأنا أيضاً لست على ما يرام . . سنشعر بالدفء وننشط أثناء اللعب» . . وقذف الكرة فانطلقت في مسارها الصحيح وسقطت على بعد بضعة أمتار من قمة الجبل والقمة التي كانت تشد انتباه «آنسون» .

ولم يلبث « آنسون » حين قذف بالكرة بدوره ـ أن فشل في تسديد ضربته، فلم تبتعد الكرة سوى بضعة أمتار . . .

أما ضربته الثانية، فقد أجاد تصويبها بحساب دقيق، ومن ثم استقرت كرته بالقرب من كرة خصمه . . واتجها معاً ناحية حافة القمة المطلة على البحر وقد أصبح الأمر الآن سهلاً للغاية . . . لعبة أطفال، وحين وصلا إلى كرتيهما، استجمع « آنسون » كل طاقته، فقد حانت اللحظة الحاسمة . . وسبقه « أورين سميث قائلاً :

ـ ما رأيك في أن نتناول هنا شراباً مرطباً، قبل استئناف اللعب؟ . . . هذا من شأنه أن يريح أعصابنا، وربما تحسن مستوى لعبنا بعد ذلك .

ـ كنت على وشك أن أقترح عليك هذا . . . ما ذا تحب أن تشرب؟ كوكا كولا؟ . . . يا غلام، اذهب واحضر لنا من النادي زجاجتين من الكوكا كولا .

واختفى الولد بين الأشجار.

- آه يا سيد سميث ما أروع هذه المناظر.. إنها تنسيك وطأة ثلاثين عاماً في أفريقيا... في التراب، في الوحل والملاريا... انظر إلى الطبيعة وهذه الصخور، وبخار المياه الناصع البياض، الذي يتصاعد فيختلط بالسحب وسط زرقة السماء.

كانت اللحظة الحاسمة قد أوشكت... فها هما قد اصبحا وحيدين، فوق صخرة معلقة بين السماء والأرض... وشعر «آنسون» بأنه ثمل من فرط القوة: إن حياة إنسان بين يديه الآن...

« إله... أنا اله ».

ثم... الفضاء... الماء... الصخور... تقدم للقائها في حركة رعب، ويداه مبسوطتان في حركة دفاع عقيمة.

* وكانت « واندا » تنتظر في لهفة وقلق...

ولم تنبس بكلمة واحدة، حين رأته يعود وحده.

- انتهى الأمر يا حبيبتي... كأنما كان يسعى إلى تيسير مهمتي، فقد تقدم من تلقاء نفسه إلى الحافة... وكان

يحدثني عن الطبيعة، والسماء الـزرقاء و. . . بـدفعة خفيفـة، انتهى كل شيء.

وكان « أورين سميث » يبدو منتشياً حالماً وهو يتكلم. . .

ـ كان الأمر غاية في السهولة. . . ترى هل. . . ؟

ولم تدعه يتم سؤاله، إذ أدركت ما طاف بخاطره. . .

ـ هيا يا حبيبي. . . كيف كان له أن يشك في الأمر؟

وهز « أورين سميث » كتفيه، وقال وهو شارد البال:

ـ كان رجلاً ساذجاً كل السذاجة. . . بيد أنه كان متين البنية.

تحضير المونتاج والبلاكات
مؤسسة التجهيزات الطباعية